دكتور جورج زايد

فيكتور هوجو

حياته وآثاره

دار المعارف بمصر

ڤيكتور هوجو

حياته وآثاره

دكتور جورج زايد

ڤيكتور هوجو

حياته وآثاره

اقرأ ٢٠٤

دار المعارف بمصر

اقرأ ٢٠٤ – ديسمبر سنة ١٩٥٩

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر – ٥ شارع ماسبيرو – القاهرة

فيكتور هوجو

(١٨٠٢ – ١٨٨٥)

كانت حياة ڤيكتور هوجو ملحمة عنيفة اصطرعت فيها آراؤه الفنية واتجاهاته الاجتماعية والسياسية وآراء العصر التي تواضع عليها النقاد وأرباب الفكر وأقطاب الاجتماع ؛ فلا عجب إن كابد هوجو في أثنائها كثيراً من الهزء والسخرية وتحمل مرارة النفي في مصابرة ورضاء حتى ارتفع إلى ذروة المجد والفخار إبان حياة قطعها في كد وعمل متصلين ، فلم يترك عقله الجبار في كره وإقدامه باباً من أبواب النشاط إلا طرقه ، فمن شعر إلى تاريخ ، ومن قصص إلى نقد فني وسياسي ، ومن مسرحيات إلى فلسفة ، كل أولئك كان يعبر عن بداهته الفنية ويشف عن إحساسه العريق وشعوره العميق ؛ مما جعله يسود بعبقريته وشخصيته جميع أدباء القرن التاسع عشر إلى حد يصح معه أن يسمى ذلك العصر بعصر ڤيكتور هوجو .

وقد عاصر إبان حياته الطويلة مختلف أنواع الحكم في فرنسا ، فمن إمبراطورية إلى ملكية مطلقة ، ومن ملكية دستورية

إلى جمهورية ؛ ومرت مراحل حياته طوراً بين الحرب والسلم ، وطوراً بين الحرية والنفى ، وأحياناً بين الثورة وقصف المدافع ، تشجيه الأناشيد القومية والمناداة بهدم الأنظمة القائمة . فلا غرو إن جاءت آثاره الأدبية مرآة لنشاط أمّة فى مدى قرن يعدّ من أهم القرون التى مرت بها ، وقد لمعت فى فجره شخصية من أعظم الشخصيات التاريخية التى كان لها أبلغ الأثر وأعمقه فى نفس هوجو ألا وهى شخصية نابليون .

نشأة هوجو

لم يكد « ينسلخ من عمر القرن التاسع عشر إلا سنتان » حتى ولد ڤيكتور هوجو ، كما ذكر فى قصيدة له من مجموعته الشعرية الثالثة « أوراق الخريف » . وكانت ولادته فى السادس والعشرين من شهر فبراير سنة ١٨٠٢ ، فى مدينة بيزانسون ، « الإسبانية الطابع » ، التى تقع فى جنوب شرقى فرنسا .

أما أبوه « ليوبول سيجسبير هوجو » فكان جندياً ، وأما أمه « صوفى فرانسواز تريبوشيه » فابنة بحار . وقد زعم ڤيكتور هوجو فى أحد مؤلفاته أنه من أسرة أرستقراطية عريقة يرجع أصلها النبيل إلى القرن السادس عشر وراح يدلل أيضاً على صحة انتسابه إلى طبقة الأشراف — كما جاء فى رواية « البؤساء » — بأن أحد أفراد أسرته كان أسقفاً لمدينة عكا ، وأن الرومان قد سموا المزرعة المجاورة لواترلو ، ساحة القتال الشهيرة التى انهزم فيها نابليون لآخر مرة ، باسم « هوجومنت » أى جبل هوجو ، وقد وجد فى ذلك دليلا قوياً يستند إليه فى الرجوع بأصله العريق إلى عشرين قرناً .

ورغم أن هوجو قد زجّ بأسرته بين طبقة الأشراف إلا أنها في الواقع كانت في مرتبة دون الطبقة الوسطى . حيث إن جدّه « چوزيف هوجو » كان نجاراً في نانسي ؛ وجدّ والده كان مزارعاً في مدينة بودريكور بجبال الڤوج ، وليس ثمة دليل واحد يثبت عراقة هذه الأسرة غير مزاعم ڤيكتور هوجو التي ساقها والتي لا يمكن اتخاذها دليلاً قاطعاً فوق أنها لا يمكن التعويل عليها بوجه من الوجوه .

ولا يزيد ڤيكتور هوجو رفعة في حلبة الافتخار ضخامة أسرته بأصلها الأرستقراطي ونسبها العريق ، فحسبه من المجد ما بلغه بعبقريته التي سحرت البصائر والنهى ، وحسبه من الفخر ما أبلاه والده المجيد في ساحات الوغى والحروب .

فوالده هو ذلك الجندي الباسل الذي أبان عن نفسه في الثورة الفرنسية ببطولة رائعة ؛ ولد عام ١٧٧٣ وألحق في بدء الأمر بجيوش الملك ، وما لبث أن أظهر من المهارة والحنكة ما رفعه إلى رتبة « كابتن » ولما يتجاوز من سنه العام التاسع عشر. ولم تكد تشب نار الثورة الفرنسية حتى اختطفته إليها فألحق بهيئة أركان حرب جيش الراين ؛ وقد وقع عليه الاختيار بعدئذ ليكون سكرتيراً للجنرال ألكسندر دي بوهرنيه . ولما

اعتصم بعض الملكيين بمقاطعة الفانديه وكرّوا على الثوار وحكومة الثورة مصابرين صامدين فى عناد وجرأة ، لم تر الحكومة بدّاً من أن توفد هوجو على رأس فرسانه لإخمادها والقضاء على الملكيين فيها فما زال بعدوّه ينافحه ، ومرامه مما يكابد معه أعزّ مرام ، حتى كان نجاحه فى مهمته مثار إعجاب رؤسائه به وتقديرهم لبسالته .

وقد اتفق أن تعرف مصادفة فى إحدى جولاته فى تلك المقاطعة إلى ابنة ربان سفينة تجارية بمدينة « نانت » تدعى « صوفى تريبوشيه » ، وكانت وسيمة رائعة القسمات ، فهزمت بسحرها قلب ذلك البطل المغوار الذى لم تعرف الهزيمة إلى قلبه سبيلا ؛ وما لبثت هى أيضاً أن شغفت بحب ذلك الجندى المقدام ، السبط القامة ، العريض الكتفين ، الأحمر الوجه ، البراق العينين ، الغليظ الشفتين ، وقد وطن نفسه ، بعد أن استقر بينهما من أسباب الحب ما استقر ، على أن يتخذها زوجاً له .

ثم نقل بعدها إلى هيئة أركان حرب الجنرال « مورو » ، وألحق بجيش الراين بمدينة « بال » ؛ فحارب فى « إنجن » و « بيبراش » و « ممنجن » بشجاعة فائقة ، وكان أول من عبر

نهر الدانوب مستعيناً بساق شجرة من الأشجار غير عابئ بما كان يصليه به العدو من نيران حامية . فكوفئ على شجاعته بترقيته إلى رتبة قومندان .

وكان يجمع إلى البطولة سعة الصدر ، ونبل النفس ، ورقة الحس . وقد روى ڤيكتور هوجو فى قصيدته الشهيرة « بعد المعركة » أن أباه عندما كان قائداً فى إحدى المعارك التى كتب له فيها النصر على العدو ، وقع بصره ، فى أثناء طوافه بساحة القتال ، على جندى جريح من جنود الأعداء يطلب جرعة من الماء ، وقد أشرف على الموت . فأهاب القائد هوجو توًّا بأحد أتباعه أن يجيبه إلى طلبه ، ثم اقترب منه مسعفاً ومواسياً ، فما كان من الجندى إلا أن ثارت حفيظته وأطلق على هوجو النار من مسدسه ، بيد أن القذيفة لم تصب منه مقتلاً . فلم يضطرب ولا غضب ، بل التفت إلى تابعه وقال له : « اسقه رغم ما فعله » .

وقد ورث ڤيكتور هوجو عن والده أخلاقه الكريمة وشجاعته النادرة ، كما ورث عنه أيضاً قوة البنية ، إذ أنه اشتهر بصحته وصلابة عوده مما لم يعرف به أى شاعر آخر فى تاريخ الأدب الفرنسى . كما ورث عنه حبه لأفراد الشعب ، وكثيراً ما سجل

ذلك فى شعره وقصصه .

وقبل أن ينجب ليوبول هوجو ڤيكتور رزق ولدين ؛ ورُوِىَ عنه أنه حين كان يقيم مع زوجه فى باريس ، تعرف إلى صديق لأسرة تريبوشيه يدعى « بيير فوشيه » ، وكان مشرفاً على سجلات المحكمة ؛ وقد توثقت بينهما من أواصر الصداقة والود ، ما جعل بيير فوشيه يطلب إليه أن يكون شاهده فى الزواج ، فقبل . وفى أثناء مأدبة العرس قال ليوبول لصديقه مازحاً : « أرجو أن أرزق صبياً ، وأن ترزق أنت طفلة ، فتكون زوجة له » . ولم يكد يمضى طويل من الوقت حتى كان ما تمناه ، فأنجب هو ڤيكتور ؛ كما رزق صديقه بنتاً أسماها « أديل » ، فكانت زوجة ڤيكتور المحبوبة .

طفولته وسفره إلى إيطاليا وإسبانيا

وما كاد ڤيكتور هوجو يقطع من حياته نحو ستة أسابيع حتى أبحر والده إلى جزيرة كورسكا على رأس كوكبة من الجند ، وقد اصطحب زوجه وأولاده . وشاءت الظروف أن ينقل إلى جزيرة « إلبا » ، ومكث فيها حتى عام ١٨٠٥ . ومن تلك الجزيرة نقل مرة أخرى إلى جيش الجنرال « ماسينا » بمدينة « چنوا » ، فسافر إليها وحده ، وعادت أسرته إلى باريس .

وتتسم هذه الفترة من حياة والده بكثرة الحروب وبما قام به من مأثرات البطولة وبما أنجزه من جليل الأعمال ، فقد حارب فى عدة مدن بإيطاليا ، وكان فى مقدمة الذين دخلوا مدينة نابولى ، تلك المدينة التى أصبحت فيما بعد مقر عرش « چوزيف بونابارت » شقيق الإمبراطور نابليون . فأنعم عليه چوزيف بونابارت برتبة كولونيل بالجيش الكورسيكى ، ثم عينه حاكماً لولاية « أڤيلينو » . ومما يؤثر عنه من أعماله المجيدة آنئذ أنه قبض على اللص الشهير « فرا دياڤالو » الذى كان يترأس عصابة تسلب وتنهب وتثير الرعب فى نفوس سكان المنطقة جميعاً .

ولما خيل إلى الكولونيل هوجو أن إقامته فى إيطاليا قد تطول ، استدعى أسرته من باريس سنة ١٨٠٧ . وكان ڤيكتور لا يتجاوز الخامسة من عمره ، فسحرته فى أثناء سفره مناظر الطريق الرائعة واستقرت فى مخيلته قمم جبال الألب ، ومياه بحر الأدرياتيك وروما ، ونابولى وبركان ڤيزوڤ .

ولم تطل إقامة أسرة هوجو فى أڤيلينو لكثرة الاضطرابات ، ولأن الأحوال دائماً كانت تنذر بعدم الاستقرار ، إذ ندب هوجو للسفر مع چوزيف بونابارت لحراسته فى الطريق بعد أن أصدر نابليون أمراً بتعيينه ملكاً على إسبانيا . فرأى هوجو من الحكمة ألا يصطحب أسرته إلى بلاد هى مثار القلاقل والفتن والثورات مفضلا أن تعود إلى باريس .

وهكذا عادت الأسرة إلى باريس مرة أخرى ، واتخذت لها مسكناً فى الطبقة الأرضية بمنزل كان قبل الثورة ديراً للراهبات « الفيانتين » ، أقامت فيه زهاء ثلاث سنوات ؛ وتعد هذه الفترة للطفل ڤيكتور من أجمل فترات طفولته . فقد كان المنزل متسعاً ، تحيط به حديقة كبيرة ملأى بالأزهار المتنوعة وبكثير من أشجار الفاكهة ، التى ذكرها فى قصيدة له بقوله :

« كانت الحديقة كبيرة فسيحة ذات غور وأسرار

يحيط بها سور مرتفع يردّ عنها نظرات الفضوليين . »

واعتاد ڤيكتور أن يقضى فى هذه الحديقة الساعات الطوال يلهو مع أخيه « أوچين » طيلة أيام الأسبوع ؛ وفى أيام الآحاد ينضم إليهما « أبيل » شقيقهما الأكبر وقد كان يتلقى دروسه فى مدرسة داخلية . وفى بعض الأحايين كانت تشركهم فى لهوهم « أديل » ابنة بول فوشيه ، إذا اصطحبتها والدتها لزيارة الأسرة . كانوا جميعاً يلهون ويلعبون وينعمون بقطف عناقيد العنب ، وقد أباحها لهم صاحب المنزل « لالاند » العالم الفلكى الشهير .

أثرّت هذه السنوات الثلاث فى نفس ڤيكتور أجمل الأثر وأعمقه ، وبقيت ذكراها عالقة بذهنه ، يردّدها فى شعره ونثره ، ويحنّ إليها كلما تذكر أوقاتها السعيدة وهو بين أخويه وأديل فوشيه

ولم تكن أمهم لتغفل عن تربيتهم وتثقيفهم . فاختارت لهم مدرساً يدعى « الأب لاريڤيير » ، كانت له مدرسة أولية لتعليم الصغار . فكان أولاد هوجو يدرسون فيها مبادئ اللغة اللاتينية واليونانية .

وفى أحد أيام عام ١٨٠٩ استغاث الجنرال « لاهورى »

بمدام هوجو أن تحميه من رجال الشرطة الذين كانوا يبحثون عنه لإقحامه نفسه فى مؤامرة الجنرال « مورو » ضد نابليون فأخفته فى منزلها ولم تطلع أحداً على أمره . وقد أفاد ڤيكتور من وجود هذا القائد بينهم فائدة عظيمة . فكان يلقنه اللاتينية ويشرح له مؤلفات « تاسيت » متعمقاً فى اللغة متبسطاً في الشرح . وبعد مضى عام ونصف عام فشا سر الجنرال ، وعلمت الشرطة بمخبئه ، فاعتقلته وحاكمته ، ثم أعدم رمياً بالرصاص . فحزن عليه ڤيكتور حزناً شديداً ، وأخذ يكثر من قراءة الكتب التى تركها له ، وأهمها مؤلفات « تاسيت » وكتاب « ألف ليلة وليلة » مشروحاً بالصور ، وهو من الكتب التى كان يعتز بها ڤيكتور اعتزازاً كبيراً لما كان يجده فيها من اللذة كلما تصفحها فى الفينة بعد الفينة .

توالت الأحداث بسرعة خاطفة وأصبح الكولونيل هوجو جنرالا ، ومنح لقب « كونت » ، وعين مرشالا للقصر الملكى فى إسبانيا ، ومحافظاً لأڤيلا وسيجوڤى ، وحاكماً لعدة ولايات ؛ وأغدق عليه الملك المال بسخاء . ولما استقرت الحالة فى إسبانيا بعض الشىء فى ربيع ١٨١١ ، أرسل هوجو يستدعى زوجه وأولاده من باريس للإقامة معه . فبارحوا باريس فى طريقهم

إلى مدريد فى رحلة شاقة استغرقت ثلاثة أشهر تقريباً ، عبروا فيها فرنسا من الشمال إلى الجنوب حتى مدينة « بايون » ، ومروا بعدة مدن إسبانية ، كـ « هرنانى » و « تركويمادا » تركت كل منها أثراً فى ذاكرة ڤيكتور .

لم تتمتع مدام هوجو طويلا برؤية الجنرال ، فقد كان بطبيعة عمله فى تنقل مستمر . أما أولاده فقد عين أكبرهم ، أبيل ، حاجباً فى خدمة الملك ، وأدخل الآخرين ، أوچين وڤيكتور ، مدرسة الأشراف فى القسم الداخلى . وقد عد ڤيكتور تلك الأشهر التى قضاها فى هذه المدرسة من أشق أيام دراسته ، لما عاناه فيها من قسوة أستاذيه « الدون بازيل » و « الدون مانوويل » ، ومن « كركوڤيتا » ، ذلك الأحدب المكلف إيقاظ التلاميذ كل صباح ؛ وقد كان لذكرياته فى نفس ڤيكتور من الأثر أن خلق منه بعد ذلك شخصيتى « كازيمودو » أحدب « نوتردام » فى رواية « نوتردام دى باريس » ، و « تريبوليه » أحدب الملك فى مسرحية « الملك يلهو » . كان ذلك إلى جانب نفور التلاميذ الإسبان وكرههم لهؤلاء الفرنسيين الغزاة الذين انتهكوا حرمة بلادهم وثلوا عرش ملوكهم . وقد امتاز من بين هؤلاء التلاميذ اثنان ، « ألسبرو »

١٧

و « فراسكو » . بسوء أخلاقهما وبشدة حقدهما على أوچين وڤيكتور ، فكانا يضربانهما كلما وجدا إلى ذلك سبيلا ؛ فنقم منهما ڤيكتور إلى حد أنه اتخذ فيما بعد من الأول شخصية مجنون كروميل فى مسرحية « كروميل » ، ومن الثانى شخصية « جوبتّا » الممقوت فى مسرحية « لوكريس بورجيا » .

العودة إلى باريس

كان تغير الأمور فى إسبانيا عام ١٨١٢ من حسن حظ ڤيكتور ، فقد اشتعلت فيها الثورة من جديد بصورة تدعو إلى القلق ، ممّا أدّى بالجنرال هوجو إلى إعادة أسرته إلى باريس ، ما عدا ابنه أبيل الذى أصبح ملازماً فى الجيش . فعاد ڤيكتور إلى منزله القديم المحبوب بالفيّانتين ، واستأنف دراسته مرة أخرى عند الأب لاريڤيير . وقد كانت والدته من ناحية مولعة بالقراءة ، تدمن على الاطلاع ؛ ومن ناحية أخرى تميل إلى الحرية فى تربية أطفالها ، تمشياً مع مبادئ « چان چاك روسو » ؛ فشجعتهم على قراءة الكتب على اختلاف مشاربها ، معتقدة بأن الكتب لن تفسد الأولاد أيّاً كان لونها ، حتى إنها كانت تحملهم على مطالعة المؤلفات التى تريد قراءتها ليبدوا لها رأيهم فيها قبل أن تقرأها ، خوفاً من أن تكون مملة . وبهذه الطريقة أتيح لهم قراءة كثير من الكتب الجيّدة وغير الجيّدة قراءة غير منتظمة ، ومن أهمّها مؤلفات « روسو » و « ڤولتير » و « ديدرو » ورواية « ڤوبلا » ورحلات « الكابتن

كوك » والتوراة وغيرها ، فأعدّ منها ڤيكتور ذخائر وأهباً لشاعريته التى بدأت تظهر منذ نعومة أظفاره .

وكان ڤيكتور عند رحيله إلى إسبانيا قد ترك أديل فوشيه طفلة ؛ فلما عاد وجدها قد أصبحت شابة وسيمة جذّابة ، لها عينان واسعتان ، وخدان ورديان ، وفم مغر ، وشعر أسود مسترسل ، يشبه جمالها الشرقى جمال الشابة پيپيتا الإسبانية التى تعرف إليها فى مدريد . فعد لا ينظر إليها نظرة الطفولة كما كان يفعل بالأمس ، بل وجد نفسه مدفوعاً إليها بعاطفة لا يدرى كنهها . كان يجد السعادة فى قربها ، ويشعر بالزهو يستولى عليه إذا اتكأت على ذراعه وهما يتمشيان فى الحديقة أو يتحادثان . وقد وصف ڤيكتور فى رواية « آخر أيام المحكوم عليه » ، بعبارات رقيقة وبأسلوب عاطفى جميل ، كيف تطوّر شعوره نحوها ، وكيف بدأ الحب بينهما يوم أن خرجا يتنزهان فى الحديقة وسط أشجار الكستناء .

لم تستمر فترة الهدوء هذه طويلا ، فسرعان ما تغيّرت الأحوال فى فى فرنسا والبلدان الخاضعة لها ، وإذا بنابليون يضطر عام ١٨١٣ إلى سحب قواته من إسبانيا وعلى رأسها أخوه الملك چوزيف ؛ فعاد الجنرال هوجو إلى فرنسا ، وأعيد إلى

رتبته الأصلية فى الجيش الفرنسى ، أى إلى رتبة الكولونيل . وعهد إليه فى الدفاع عن مدينة « تيونفيل» فى يناير سنة ١٨١٤ .

وقد استولت الحكومة فى ذلك الوقت على الفيانتين ، فأخلته أسرة هوجو ، وأقامت فى منزل بشارع « شرشميدى » . ولم يمض زمن طويل حتى دخل الروس والبروسيون فرنسا واحتلت قواتهم باريس ، فرأى ڤيكتور من نافذة منزله خيل القوزاق ترعى الحشائش فى فناء دار المجلس الحربى . ولما نزل نابليون عن العرش استسلمت حامية تيونفيل مع قائدها هوجو .

وفى السنة التالية ، عندما عاد نابليون من جزيرة « إلبا » ، أرسل ليوبول هوجو إلى تيونفيل مرة أخرى للدفاع عنها ، ولكن سرعان ما قُهر نابليون وأعيد النظام الملكى فى فرنسا . فأقيل الكولونيل هوجو وأحيل إلى المعاش ، ثم نفته الحكومة إلى مدينة « بلوا » . ولما كان الشقاق قد تفاقم ما بينه وبين زوجته فقد آثر تركها ، وعاش فى منفاه مع خليلته سيسيل توما .

الطفل النابغة

كان الكولونيل هوجو بعد عودته من إسبانيا قد أدخل ولديه مدرسة يديرها « كورديبه » و « ديكوست » ؛ فظل فيكتور فى هذه المدرسة ثلاث سنوات ، مسه فى أثنائها شيطان الشعر وولّد فى نفسه شوقاً شديداً إلى نظمه . فعالجه طويلا ونظم عدداً من القصائد فى الغزل والهجاء والفخر ، وكتب عدة مسرحيات وتراجم ؛ ولكنه كان يخفى ذلك ولا يظهره .

وكان والده يريد أن يلحقه بكلية الهندسة ، فأدخله تمهيداً لذلك مدرسة « لوى ليجران » ليتابع الدراسات الرياضية والعملية ، ولكنه رغب عن هذا النوع من الدراسات ولم يصبر على حفظ هذه القوانين المعقدة المملة ، ولم يكن كباقى الطلبة يستخدم قوة إدراكه فى دراسة الرياضة بل كان يتبع طرقاً خيالية وغير مألوفة فى حل نظرياتها ، فيجد لكل مسألة حلاً مبتكراً يكون أحياناً صواباً وفى أغلب الأحيان يكون خطأً .

وقد حملت عليه ثورة الشعر وطغت على مشاعره ، فنفر من

الرياضيات ولم يعرها شيئاً من اهتمامه ، وثارت به رغبة شديدة في أن يصبح يوماً ما شاعراً عظيماً ، حتى إنه كتب في مذكراته يوم ١٠ يوليه عام ١٨١٦ : « إمّا أن أكون مثل شاتوبريان وإلاّ فلا » .

كان حينذاك في الرابعة عشرة من عمره . وفي السنة التالية أرسل إلى الأكادمية الفرنسية قصيدة من ثلثمائة بيت من الشعر عنوانها « السعادة التي تنجم عن الدراسة في جميع مراحل الحياة » . فاستحسنت الأكادمية شعره ، ولكنها استصغرت سنه وظنّتها خدعة منه ، فلم تجزه عليها واكتفت بتسجيل اسمه بين الشعراء . فشجعه هذا النجاح على إرسال غيرها من قصائده إلى أكادمية الشعر بتولوز ، ونال عليها عدة جوائز ؛ وقد فازت آخر قصيدة منها وعنوانها « إعادة تمثال هنرى الرابع » بجائزة الزنبق الذهبي .

فأخذ اسم فيكتور هوجو ينتشر في البيئات الباريسية . وطفق الناس يتحدثون عن هذا « الطفل النابغة » ، كما قال « شاتوبريان » حين هنأه بفوزه على حداثة سنه . ولم يكتف فيكتور هوجو بنظم الشعر بل طرق باب القصص وألف « بوج جرجال » في مدة لم تتجاوز الخمسة عشر يوماً .

ثم ترك ڤيكتور المدرسة وعاد وأخاه يقيمان مع والدتهما ، التى كانت تسعى إلى الطلاق من زوجها ، فاضطره سوء الحال إلى أن يعتمد على قلمه ليعيش . فكتب قصيدة شديدة الهجاء أظهر فيها ميله للملكية ، رفعت مقامه فى الأوساط الأرستقراطية فى باريس . وأتبعها عام ١٨٢٠ بقصيدة أخرى عن وفاة الدوق « دى برّى » حازت استحسان الملك لويس الثامن عشر ، فكافأه عليها بخمسمائة فرنك ، فشجعه ذلك على نظم ثلاث قصائد أخرى أرسلها إلى أكادمية تولوز . فأجازته عليها بأن عينته عضواً فيها ومنحته لقب أستاذ فى الشعر .

وقد أسس مع أخيه أبيل بعد ذلك مباشرة جريدة « المحافظ الأدبى » ، نشر فيها قصائد عديدة وكثيراً من الدراسات التاريخية والفلسفية ، كما أفرد فيها فصولا للنقد الأدبى ؛ وقد جمع كل ذلك فيما بعد فى مجلد عنوانه « مزيج من الأدب والفلسفة » . وقد كان فى جريدته محافظاً من الوجهة الأدبية ، ولم تكن بعد قد تملكته ثورته الشعرية التى اشتهر بها فيما بعد .

عاشت جريدته سنتين نمت فيهما ملكته الأدبية وزادت مقدرته على الإنتاج ؛ وقد تعرف خلال هذه الفترة بكثير من

الشعراء والكتاب وتوطدت بينه وبينهم أواصر الصداقة ، منهم « لامرتين » و « ڤينيي » و « ديشان » و « لامنيه » . ولما أنشئت « جمعية الآداب الجميلة » انضم إليها وأنشد أمام أعضائها بعض قصائده ، فظفر بإعجاب الجميع .

وقد كان ڤيكتور هوجو إذ ذاك فى ربيعه التاسع عشر ، وسيم الطلعة جذّاباً ، آية فى الجمال ، طويل القامة ، حسن الهندام ، له جبهة عريضة بيضاء تلفت سعتها الأنظار ، يكلل رأسه شعر كستنائى ناعم ، وله عينان واسعتان عميقتان ، تنعكس فيهما عبقريته ونبوغه ، دقيق الأنف ، قوى الذقن ، ترى فى وجهه قوّة إرادته وشدة شكيمته .

سنوات عسيرة

برز ڤيكتور هوجو فى المجتمع وارتقى سلم المجد وثباً ، فأنساه نجاحه كل شيء حوله إلا حبه لأديل فوشيه ولما علمت أسرتاهما بما بينهما من حب ، رأتا ألا سبيل إلى زواجهما لصغر سنهما ، ففضلتا التفريق بينهما قضاء على تلك العاطفة .

فكان وقع الفراق أليماً عليهما ، ولما كانا أعجز من أن يثورا على هذا الحكم تعاهدا على أن يظلا مخلصين مهما طالت الأيام .

وتلا ذلك الفراق فراق آخر كان أشد إيلاماً لقلب الشاعر ، وهو موت والدته فى ٢٧ يونيه سنة ١٨٢١ . فكانت صدمة رهيبة أثرت فى نفسه كل التأثير . أما والده فلم يجزع لذلك كثيراً ، بل سرعان ما اقترن بسيسيل توما التى كان يعيش معها فى المنفى .

وساءت العلاقات ما بين الوالد وولديه ، فلم يرضه أن يحترفا الأدب وأن يعدلا عن دراسة الهندسة كما أراد ، فحرمهما ما كان يمنحهما من الراتب المألوف . فضاقت الحياة فى عين

ڤيكتور هوجو ، وذاق مرارة الفقر سنة كاملة لم يكن دخله فيها أكثر من سبعمائة فرنك .

وكان يسكن غرفة صغيرة فى وسط باريس ، فأخذ يجدّ ويجتهد ، ويعمل بلا كلل ولا ملل ، لايدع لليأس إلى نفسه سبيلاً ، يقاوم الفقر ويناضل من أجل الحياة بكل شجاعة وإقدام ، وقد وطّد العزم على النجاح . فانتعش بالأمل وعدّ نفسه غنيًّا بشجاعته وأمله ، فتقدم إلى والد أديل يطلب إليه يدها . ولم يكن هذا الوالد ممن يؤمنون بالوعود ، بل كان يؤمن بالواقع ، والواقع فى نظره هو حالة الشاب حينئذ ، وهى حالة لا تسرّ ڤيكتور هوجو نفسه ولا من يطلب منه يدها . فرفض طلب الشاعر ، وكان ذلك صدمة أخرى زادت آلامه وكادت تضعف ثقته بنفسه وبمستقبله ، لولا عزيمته الجبارة التى أوحت إليه أن يتخذ من الكتابة لخطيبته سلوى لنفسه ووسيلة لتهدئة ثورته القلبية . فأخذ يراسلها شارحاً لها ولعه وغرامه وعذابه ؛ وقد جمعت بعد ذلك رسائله لها فى كتاب سمى « رسائل إلى الخطيبة » .

ولما انتقل الأب فوشيه وابنته بعد ذلك إلى « بلوا » ، وهى تبعد عن باريس حوالى الثمانين كيلو متراً ، تعذّر على ڤيكتور

هوجو مراسلة حبيبته بانتظام ، فلم يجد أمامه سبيلا إلا جريدته « المحافظ الأدبى » ؛ فأخذ يكتب فيها مقالاته الغرامية الطويلة ، وكانت أديل وحدها — وأحياناً والدها — تدرك من يقصده ، إذ كانت فى الواقع موجهة إليها . وقد دفعته يوماً شدة شوقه لرؤيتها إلى السفر إلى بلوا مترجلا ، إذ لم يكن يملك أجرة سفره . ولما لم يجد شفاء كافياً لغليله كتب عام ١٨٢١ رواية « هان ديزلاند » التى نشرها تباعاً بجريدته ، وجعلها صورة حية له ولأديل ، وصف فيها شدة حبه وغرامه وعذابه على لسان بطل الرواية « أوردنير » لحبيبته « إيتيل » . وقد كان لهذه الرواية وللمقالات الأخرى أثرها المحمود فى نفس الأب فوشيه ، الذى لمس منها حب ڤيكتور لابنته على حقيقته وشدة ما يعانيه الفتى من آلام الفراق . فأخذ قلبه يميل شيئاً فشيئاً إليه ، حتى سمح له أخيراً ، بعد عودتهما إلى باريس ، برؤية الفتاة مرة فى الأسبوع والتحدث إليها فى صحبته ، ووافق على تزويجه إياها ، إذا تحسنت حالته المالية ، وإذا حصل على موافقة والده على هذا الزواج .

سنوات التمرين

أكبّ ڤيكتور هوجو على العمل ونشر فى يونيه سنة ١٨٢٢، بعد أن أوقف إصدار جريدته ، أول مجموعة شعرية ، سماها « أغانى وقصائد مختلفة » ؛ وهى مجموعة قصائد كانت قد نشرت من قبل تباعاً فى جريدته ، طالب فيها بشد أزر الملكية وبتثبيت دعائم العرش والدين فى فرنسا . وكان أسلوبه فى هذه القصائد لا يختلف كثيراً عن الأساليب المألوفة عند « چان باتست روسو » و « لبران پندار » رغيرهما ، رغم ما كان يبدو فيها فى بعض الأحيان من طابع شخصيته التى كانت تنبئ عما سيكون له من الشأن فى المستقبل . وقد ظهر ذلك جليًّا فى قصائده التى أرسلها إلى خطيبته وهى « الأسف » و « إليك » و « وادى شيريزى » ، وقد تغلبت فيها العاطفة على الإطناب والإحساس الشخصى على الوصف العام ، زعرف الشاعر المتيّم أن الشعر إنما هو أداة للتعبير الصريح عن الشعور الحقيقى .

كان هذا المجلد أشبه بإرهاصات لنفس عظيمة انعكست

عليها عواطف القرن التاسع عشر فى بدايته ، نلمس فيه حماسة « شاتوبريان » الدينية ، والرغبة القلقة فى الاستمتاع بالحياة ، والتفانى فى تكريم كل ما يبعث مجد فرنسا القديم وذلك بتجديد تراثها الأثرى ، وأخيراً خلق عصر جديد خير من العصر الحالى ، عصر حرية وسلم وعدالة .

كل ذلك نجده فى هذا المجلد الصغير ، الذى عثر عليه مصادفة قارئ لويس الثامن عشر فى مكتبة بباريس ، ووجد فيه إحدى الوسائل لتسلية الملك الذى كان مغرماً بالشعر ؛ فقدمه إليه ، فلما رآه ورأى حقارة مظهره ، ظنّه شيئاً تافهاً ، ولكن سرعان ما تغير رأيه فيه بعد أن تليت عليه بعض قصائده . وأعجب به حتى إنه راجع قراءته بنفسه وعلق ملاحظات على هامشه . وقد أعجب بقصيدة « وفاة الدوق دى برّى » — وهو ابن أخيه — إعجاباً خاصًّا فعلق عليها بكلمة « بديعة » ، وكان كثيراً ما يقرؤها على حاشيته . وإظهاراً لتقديره للمجلد ومؤلفه أمر بربط معاش سنوى لڤيكتور هوجو قدره ألف فرنك .

فطار لبّ الشاعر بهذا المعاش ورأى تحقيق أول شرط فرضه والد حبيبته لتزويجه إياها ، وبقى الشرط الثانى وهو موافقة والده الجنرال ، فأرسل إليه يستأذنه ، فما إن وصلت إليه

موافقته حتى أسرع إلى والد حبيبته يطلب إليه يدها ، فلم يجد هذا سبيلا إلى الرفض ، وقد حاز ڤيكتور هوجو رضاء الملك وإعجابه . وبذا تم القران يوم ١٤ أكتوبر سنة ١٨٢٣ فى حفل بهيج ضم أفراد الأسرة فى نفس الكنيسة التى كللت بالسواد قبل ذلك بعام ، يوم وفاة والدته .

إلاّ أن حفلة العرس لم تنقض دون أن يعكر صفاءها معكّر ، فبينما الجمع فى نشوة سرورهم وفرحهم إذ بأخيه أوچين تنتابه نوبة عصبية أودت بعقله ، وكان سببها حبه الذى كان يخفيه لأديل ويكبته فى نفسه احتراماً لأخيه . فحزن عليه ڤيكتور وتألم له ، فقد كان رفيق حداثته وشبابه ؛ ومات عام ١٨٣٧ فى مستشفى « شارنتون » وقد ذهبت سدى كل المحاولات التى بذلت لشفائه .

وفى العام التالى لزواجه جمع شاعرنا رواية « هان ديزلاند » ونشرها فى كتاب واحد بعد أن نقحها ، وكان قد نشرها تباعاً بجريدته قبل ذلك . وهى رواية وحشية مفزعة على نمط روايات « ولتر سكوت » لوحش آدمى استساغ أكل لحوم البشر وشرب دمائهم ، يتخلل حوادثها المرعبة مواقف عاطفية مؤثرة عن حب « أردنير » لـ « إيتيل » ، وهو كما مر بنا وصف لحب ڤيكتور

هوجو لأديل فوشيه . وقد أعجب بها الملك فأمر بمضاعفة معاشه .
وفى الوقت نفسه رزق الشاعر ولده الأول ، وسماه ليوبول ، فكانت سعادته به لا توصف . وانتهز والده الجنرال هذه الفرصة فقدم باريس لتهنئته ولمحو ما تركه زواجه الثانى من سيسيل توما فى نفس ڤيكتور من أثر سيئ . وقد استقبله ولده استقبالا حارًّا . ولما حمل الجد حفيده بين يديه فخوراً ، نسى ڤيكتور كل ما كان بينه وبين والده فى المدة الأخيرة ، وتجدّد حبّه القديم له ، مزهوًّا بمجده الحربى وبما قام به من جليل الأعمال فى عهد نابليون ، وحفزه الفخر إلى أن يكتب عنه قائلا :

« أتيح لى أن أرى رجلاً عظيماً وهذا الرجل هو والدى » .

ثم عاد الوالد إلى مدينة « بلوا » ومعه الطفل ومرضعته ، وكان سقيماً حتى لا يرجى ، على أن الوالد كان يأمل أن يفيد الطفل جو « بلوا » ، فخاب أمله ومات الطفل ولمّا يتجاوز الشهرين . فحزن عليه والداه كثيراً ، ولكن لم تمض سنة حتى رزقا طفلة قوية سليمة النبية ، سمياها ليوبولدين ، فأنستهما الطفل الراحل .

كان شاعرنا فى ذلك الوقت نشيطاً منتجاً ، يكتب فى عدة مجلات أدبية ، فكفل له ذلك دخلا لا بأس به . وقد رأى أن

ينشئ جريدة يحيي بها ذكرى « المحافظ الأدبى »، فاشترك معه بعض الشبان، وأصدر جريدة « إلهة الشعر الفرنسى » La Muse française، ولم تدم أكثر من عام واحد كانت فيه لسان حال الحركة الشعرية الحديثة المعروفة بالمذهب الرومنتيكى وممن شاركوه فى نشر القصائد وكتابة المقالات « ألفريد دى ڤينيي » و « إميل ديشان » و « سوميه » و « شيندوليه » و « صوفى ودلفين جاى » و « شارل نودييه » محافظ مكتبة الترسانة.

وكان هؤلاء الشعراء الشبان يجتمعون فى أيام الأحد عند شارل نودييه، فيتجاذبون أطراف الحديث ويتباحثون فى الأدب والشعر. وقد أطلقوا على اجتماعاتهم اسم « المجمع » le Cénacle. وكانوا يعقدونها شتاء حول البيان، يتخلل أحاديثهم عزف بعض القطع المصحوبة بالغناء أو الرقص: وصيفاً كانوا يختارون لاجتماعاتهم الحدائق وظلال الأشجار المورقة. يشاركهم أحياناً « ألكساندر دوما » الروائى الذائع الصيت، والموسيقار « ليست » والشاعر « ألفريد دى موسيه » إبان شبابه والناقد « سانت بيف » الذى سنتناوله بالحديث فيما بعد لما كان بينه وبين زوجة ڤيكتور هوجو من علاقات ردية.

فى طريق المجد

توفى لويس الثامن عشر ربيع عام ١٨٢٤ وخلفه أخوه شارل العاشر ، وقد سلك مسلك أخيه فى تشجيعه الأدب وتكريمه الأدباء ، فأبقى معاش ڤيكتور هوجو على ما كان عليه ، بل أضاف إلى ذلك أن قلده وسام جوقة الشرف ودعاه لحضور حفلة التتويج بمدينة « رمس » بعد عدة أيام . وقد رأى الشاعر أن يقضى هذه الأيام الباقية فى زيارة والده ، فسافر مع زوجه وابنته إلى « بلوا » . وعند مقابلته والده أعطاه الوسام قائلا : « هذا لك أنت يا أبى » . فتقبله منه فخوراً ، ولم يكن قد منح مثله إبان حياته العسكرية الطويلة وما أبلى فيها من بلاء حسن . ولم يسع الوالد إلا أن ينزع شارة رتبته العسكرية الحمراء ويضعها على صدر ابنه .

ووصل ڤيكتور هوجو مع شارل نوديبه إلى مدينة « رمس » بعد سفر أربعة أيام لحضور حفلة التتويج فى ٢٩ مايو سنة ١٨٢٥ . فرأى كاتدرائيتها العظيمة ، التى اشتهرت بتتويج ملوك فرنسا فيها ، تعج بالمدعوين والمدعوات من علية القوم

بملابسهم الحريرية وبجواهرهم الثمينة البراقة تسطع فى أرجاء الكنيسة . ثم حضر الملك فى موكبه العظيم ، وكانت حفلة شائقة لم تشهد الكاتدرائية حفلة مثلها منذ خمسين عاماً .

أخذ ڤيكتور هوجو بروعة الحفلة وعظمتها ، فكتب عنها قصيدته الشهيرة « تتويج شارل العاشر » . وقد تجلت عبقريته فى وصفه للحفلة وروعتها ، ولشارل العاشر وجلاله . وقد أعجب بها الملك إعجاباً شديداً حتى إنه دعاه لمقابلته يوم ٢٤ يونيه عام ١٨٢٥ ، وهنأه عليها وأمر بأن تطبع طبعة فاخرة فى المطبعة الملكية ، وكافأه عليها بأن أعاد إلى والده رتبة الجنرال .

تعرف ڤيكتور هوجو بالشاعر العظيم الذائع الصيت لامارتين ، وكان قد أعجب بمجموعة قصائده « التأملات » . فتوثقت بينهما أواصر الصداقة ولما رحل لامارتين إلى مدينة « شامبرى » فى جبال ساڤوا دعا صديقه إلى زيارته ؛ فسافر إليه مع زوجه وابنته ليوبولدين .

وعند عودته إلى باريس فى أوائل عام ١٨٢٦ نشر رواية « بوج چرجال » ، التى كان قد نشر أجزاءها متتابعة فى جريدته « المحافظ الأدبى » ، وهى قصة تدور حول ثورة الزنوج فى جزيرة « سان دومنجو » سنة ١٧٩١ . وفى نفس



ڤيكتور هوجو فى شبابه (سنة ١٨٢٨)

السنة أخرج الطبعة الثانية لكتابه « الأغانى » وأضاف إليها « الأناشيد » وهذه المجموعة إن دلت على شيء فإنما تدل على التطور فى أفكار الشاعر الأدبية ، ولو أن طريقته لم تختلف فى نظم الشعر عن طريقة سابقيه من الشعراء بشكل واضح، غير أنه أظهر فيها ميلا للمذهب الرومنتكى الحديث ومهارة فى التلاعب بأوزان الشعر. وأخذ يصف فى قصائده القصور القديمة التى يسكنها الفرسان المزوّدون بالدروع على ظهور جيادهم المطهمة ، وسيداتهم المتيمات وخدمهم المطيعون ؛ وأخذ يتمثل هذه القصور وقد امتلأت بالسحرة والجن والعفاريت . ومن أهم قصائده هذه : « العملاق » و « خطيبة الطبال » و « طواف الجن » . ونالت هذه المجموعة من الشهرة ما نالته مجموعته الأولى من قبل .

بدء الصراع الرومنتيكى

لم يلبث هوجو طويلا حتى أظهر ميله نحو مذهبه الجديد بصورة واضحة ؛ فأخذ بعض النقاد يكتبون المقالات الطوياة المليئة بالمدح لهذا الشاعر الشاب ، الحديث العهد . الذى أظهر عبقرية فذة جعلته فى طليعة الشعراء المجددين . وقد كان من بين هؤلاء النقاد شاب لم يتجاوز الثانية والعشرين . وقد عمل على إحياء أدب القرن السادس عشر ، هو سانت بيف Sainte-Beuve الذى ذكرناه قبلا . وقد أصبح فيما بعد أعظم وأدق من اشتغل بالنقد الأدبى فى فرنسا فى مختلف العصور . كان سانت بيف شاعراً أيضاً ولم يكن حتى ذلك الحين قد نشر قصيدة واحدة من شعره . وكان يقطن بجوار هوجو ، فتعارفا وتزاورا ، وأخذا يتطارحان الشعر ويتحادثان فيه متبادلين الآراء . وكانت زوج هوجو تشاركهما فى اجتماعاتهما ، صامتة ، تتبع أحاديثهما . وقد استرعت انتباه سانت بيف بجمالها الشرقى الفاتن ، فكان ينظر إليها من حين إلى آخر نظرات خفية مغرية مريبة ، تنم عن سوء النية وعن خبث الطوية .

بث سانت بيف فى هوجو ميلا للإكثار من الحرية فى الشعر ، وأبان له ما كان عليه شعراء القرن السادس عشر من حرية وإقدام فى التعبير ، ومهارة حاذقة فى تنويع أساليب الشعر . وأخذ هذا الميل يزداد وينمو فى نفس شاعرنا ، فإذا به قد نهج فى شعره منهج شعراء القرن السادس عشر ، تاركاً أسلوبه القديم ، أسلوب شعراء القرن الثامن عشر ، أمثال « شيندوليه » و « شانيه » ، فثار على تقاليد عصره وأساليب معاصريه ، واتجه عامداً ومخلصاً بكل مواهبه وعبقريته إلى التحرر من الأوزان المألوفة فى الشعر وعدم التقيد بمقاطع مخصوصة . وكانت ثورته جريئة . لم يعرف لها مثيل فى شاعر من قبل . وما قصيدتاه « صيد البرجراف » و « خطوات سلاح الملك چان » إلا أكبر دليل على ذلك .

وبجانب هاتين القصيدتين نجد قصائد أخرى أكثر رصانة ، كقصيدته المسماة « صباى » ، وهى التى وصف فيها سنوات صباه مع والده بين معسكر وآخر ، وقصيدة « الجزيرتان » وهما جزيرة كورسكا وجزيرة القديسة هيلانة ، مهد نابليون وقبره ، وقصيدة «عمود ميدان ڤاندوم » وقد كتبها أثر حادث أثاره سفير النمسا فى فرنسا . فقد كان نابليون يخلع على

قواده ألقاب مقاطعات دول أوربا ، وبعد عودة الملكية نصت معاهدة باريس عام ١٨١٤ على إلغاء الألقاب المسماة بأسماء المقاطعات النمساوية. ولكن هذا القانون كان صوريًّا ولم يأخذ به أحد.

فى حفلة ساهرة أقامها سفير النمسا فى فرنسا عام ١٨٢٧ كان بين المدعوين ثلاثة من ماريشالات الإمبراطور نابليون : « سولت » و « مورتيه » و « أودينو » . كل منهم يحمل لقباً رناناً مسمى باسم مقاطعة نمساوية : فالأول دوق دلماسيا ، والثانى دوق تريڤيز ، والثالث دوق ريچيو . فتعمد السفير تقديمهم إلى جميع المدعوين بأسمائهم الشخصية دون ذكر ألقابهم . فسبب ذلك ضجة كبيرة انسحب القواد على أثرها من الحفلة وتبعهم باقى قواد الإمبراطور .

عزّ ذلك على ڤيكتور هوجو وهو ابن قائد سابق . فثار لأجل هذا الحادث الذى عده فضيحة كبرى مست شرف فرنسا ، فكتب قصيدته السابق ذكرها « عمود ميدان ڤاندوم » . التى تنمّ عن تطوّر فى نفسه ، وهو رجوعه عن اندفاعه نحو الملكية الرجعية وازدياد ميله إلى الحرية فى جميع مظاهرها . فلم يكن جهاده مقصوراً على تحرير الشعر من قيوده المألوفة فحسب ، وإنما ظهرت آثار ثورته فى التحرر السياسى والتحرر الفكرى عامة.

مقدمة مسرحية « كرومويل »

ظهرت فى فرنسا فى ذاك الحين حركة أدبية أخذت تتجه رويداً رويداً إلى التجديد من الناحية الفكرية ، وهى الحركة المسماة بالحركة الرومنتيكية . ولكن كل الذين كانوا يقومون بهذه الحركة لم تكن لهم مبادئ ولا قواعد ثابتة ، ولا مذهب معين ولا مدرسة ينتمون إليها ، وكل ما كان يصل بعضهم ببعض إن هو إلا فكرة إيجاد نهضة حديثة للفن والأدب ، والتجديد فيهما . ولما كان لابد لمثل هذه الحركة من رائد يتزعمها ويعمل على نموها ، لكى تأخذ طريقها فى الظهور والانتشار ، فقد تقدم ڤيكتور هوجو بمقدمة مسرحية « كرومويل » . وفيها وحد هذه الحركة ودعمها ، ووضع لها برنامجها ، وحدد اتجاهاتها .

فقد أبان شاعرنا فى هذه المقدمة أن الإلهام الناشئ عن العبقرية ، والشعور الشخصى الخالص ، يجب أن يحلا محل القواعد العتيقة التى كانت أسساً للشعر من قديم الزمان . فنراه فى مستهلها يثور على هذه القيود القديمة التى وضعها

الشعراء والأدباء الأقدمون للشعر وللمسرحيات ــ وخاصة « بوالو » ــ وينادى للشاعر بالحرية المطلقة فى آرائه وأفكاره وفق أهوائه وميوله . وبذلك يعود الفن إلى الحقيقة والطبيعة والحياة. وكما أن فى الحياة تناقضاً ، إذ أنها تجمع ما بين الفرح والحزن ؛ فعلى الشاعر أن يجمع كذلك فى مسرحية واحدة ما بين الحوادث المضحكة والحوادث المبكية ، ولا داعى أبداً لذلك التقيد العتيق الذى اصطلح عليه الأقدمون ، وهو تقسيم المسرحيات إلى نوعين : ملهاة ومأساة ، وعدم الجمع بينهما فى المسرحية الواحدة .

وقد رأى هوجو بثاقب فكره أن الحقيقة والواقع ، اللذين تختلط فيهما السخرية والسمو ، هما خير ما يجعل للمسرحية تلك الروعة الأخاذة . وإذن فليجعل مسرحياته مستقاة من تلك الحقائق الطبيعية فى الحياة ، بدون تقيد إلا بما يتطلبه الفن من اختيار ، وبما تقتضيه العبقرية من تحوير .

أما الشعر فيجب أن يكون طبيعيًّا ، سهلا ، صريحاً ، بعيداً عن التكلف ، سلساً ، مرناً ، بحيث ينتقل به الشاعر من وصف المناظر الطبيعية إلى وصف عواطف النفس ، ومن الرثاء إلى سرد المواقف الهزلية ، ومن الغزل إلى وصف مواقف الأبطال . ويجب أن يكون كثير المقاطع ، غير مقيد

بنظام المقاطع القديمة الذى لم يكن يسمح للشاعر بالتعبير عما يختلج بنفسه من شعور .

والثابت أن شعراء القرن السابع عشر وضعوا تقاليد أدبية وفنية ونظماً للشعر تجعل المجال أمام الشاعر ضيقاً ، لا يمكنه أن يحيد عنه . فوضعوا صوراً عن المرء وعن الجمال ثابتة لا تتغير ، ينقلها شاعر عن آخر بدون أن تتاح له فرصة للتجديد والابتكار ، كما أنهم قيدوا مسرحياتهم بثلاثة قوانين يجب أن تتبع فى كل مسرحية ، وهى :

١ ــ وحدة الزمن ، أى أن كل مسرحية يجب أن يبدأ موضوعها ويتم فى يوم واحد .

٢ ــ وحدة المكان ، أى أن كل مسرحية يجب أن تقع حوادثها فى مكان واحد .

٣ ــ وحدة الموضوع ، أى أنه يجب أن يكون لكل مسرحية موضوع واحد تدور حوله الحوادث .

وكانت نظريتهم مبنية أيضاً على مبدأ الاستقرار الدائم . فعارضهم هوجو فى ذلك ورأى أن العالم فى تغير مستمر وأن لكل عصر فنه وشعره . ففى العصور الأولى كان الشعر غنائيًّا ، وفى العصور القديمة اهتم الفن بالإشادة بسير الأبطال ، فكان

الشعر القصصى . أما فى العصور الحديثة فيجب أن يكون الفن نوعاً آخر هو « الدراما » ، يجمع بين شتى الأنواع ، بين الرفيع والساخر والمفرح والمحزن ، ويكون مجال التجديد والابتكار فيه واسعاً . ويقول هوجو إن شكسبير هو أول من فهم ذلك فهماً تامًّا وعمل به ، فخالف معاصريه وابتكر فنجح وبلغ القمة . فالابتكار يخلق الجمال ، أما التقليد فهو الموت للفن . والعبقرية تخلق قواعدها بنفسها ، والإلهام نوع من الحقيقة .

وبالاختصار فقد كان أهم ما فى مقدمة « كرومويل » من تجديد هو : الرجوع إلى الحقيقة ، والتعبير عن الحياة المطلقة ، والحرية فى الفن .

ولم تلبث هذه المبادئ أن صارت قوانين المدرسة الحديثة التى تزعمها ڤيكتور هوجو ، وقد نالت إعجاب كثيرين فأخذوا يطبقونها فى أشعارهم وفى مسرحياتهم ، ويتبعون الطريق التى مهدها لهم الشاعر .

ومن ناحية أخرى لم تصادف هذه الحركة رضاء بعض الشعراء المحافظين ، المقلدين للأدب القديم (الكلاسيكى) ، فأخذوا يهاجمونها ويهاجمون هوجو وأتباعه ، ملقبين إياهم

بالبرابرة الهمجيين . فكانت نتيجة ذلك أن زاد التفاف أتباع هوجو حوله ، وراحوا يدافعون عنه بكل ما أوتوا من قوة ، دفاع أحرار عن عقيدة ودفاع أتباع عن زعيم .

قدم هوجو مسرحيته « كروموبل » بهذه المقدمة ، فظفرت المقدمة بنجاح كبير فى البيئات الأدبية أكثر مما ظفرت به المسرحية نفسها ، إذ أنها لم تمثل على المسرح لما فيها من إطالة ، رغم جمال شعرها .

وفى السنة التالية قدم مسرحية أخرى ، مقتبسة من رواية « قصر كنلورث » للكاتب الإنجليزى « ولتر سكوت » ، عنوانها « أمى روبار » ، وقد مثلت على مسرح « الأوديون » ولم تصادف نجاحاً .

فتألم هوجو ، ولكن ألمه لم يكن إلا سحابة صيف لم تلبث أن انقشعت سريعاً ، إذ لم يمض وقت طويل حتى رزق طفله « شارل » فبدل من ألمه سروراً ومن حزنه فرحاً . وكان أسعد أوقاته وأحبها لديه تلك الساعات التى كان يقضيها بين أولاده وزوجه . وشد ما كانت تلك الساعات مصدر إلهام ووحى له فى قصائده !

ومما زاد سروره زواج أخيل أبيل وحضور والده الجنرال

إلى باريس وإقامته بشارع « بلوميه » . فكان ڤيكتور هوجو يتردد عليه كثيراً ويقضى معه سهرات مملوءة بروح العطف والحب والودّ ، تتخللها قصص الجنرال العسكرية وذكريات الثورة وحروب الإمبراطور . فبعثت هذه القصص وتلك الذكريات فى نفس شاعرنا روحاً جديدة ، شعر معها أنه ابن الثورة ووليد الإمبراطورية . وقد ظهرت هذه الروح بوضوح بعد ذلك .

وسعد الجنرال فى هذه الأيام برؤية ولديه وأحفاده . وذات يوم ، وهو فى أسعد أوقاته وأتم صحته ، قضى فجأة وهو واقف على قدميه وهوى كما يهوى الجندى فى ساحة القتال .

« الشرقيات »

انتقم هوجو من المسرح لفشله فيه بمجموعة من الشعر لم تكد تنشر فى يناير سنة ١٨٢٩ حتى انفجرت انفجار القنبلة لما لاقته من نجاح عظيم . وهذه المجموعة قد أوحت بها ثورة اليونان على الأتراك وحب الشاعر للشرق ومناظره ، سمّاها « الشرقيات » .

كانت هذه المجموعة موضع الدهشة والإعجاب لأنها كشفت عن ناحية غير مألوفة فى الشعر الفرنسى ، ناحية لم يكتب فيها أحد قبله ، ألا وهى كتابة القصائد عن الشرق وسحره . وقد نظمها الشاعر وأسهب فيها رغم أنه لم يزر الشرق ولم يره ، بل استعان بتلك المناظر التى شاهدها فى إسبانيا فى أثناء سفره إليها ، وبذكرياته عن كتاب « ألف ليلة وليلة » الذى أغرم بقراءته فى صباه ، ومشاهدته لبعض اللوحات الشرقية كـ « مذبحة كييوس » التى عرضها الرسام « ديلاكروا » ، صديقه ، عام ١٨٢٤ ، (فى السنة التى قضى فيها بايرون نحبه فى ميسولنجى) ، وقراءته لكتاب « دليل السفر من باريس

إلى أورشليم » لشاتوبريان ، وكتاب « الأغانى الشعبية لليونان الحديثة » للمؤلف « فوريال » ، ووقوفه على مختلف خفايا الشرق التى سردها المستشرق « أرنست فوينيه » ، ومجموعة الأغانى الإسبانية « الرومنسيرو » التى شرحها له أخوه أبيل وصديقه أميل ديشان .

اكتفى هوجو بمشاهداته ومراجعه هذه ليتعرف على الشرق وبلاد العرب واليونان والبلاد الخاضعة لسيطرة الأتراك ، فأمكنه أن يصوّرها تصوراً ناطقاً فى مجموعة شعرية قوية جذابة ، يروعك فيها تصويره للحريم والقصور الشرقية ، ووصفه للحكام الشرقيين كما يتصورهم الغربيون ، وما اشتملت عليه من حوادث الغرام والاستمتاع بالحياة والاستغراق فى اللذات الحسية بجانب حوادث القتل والعنف .

ترى ذلك وتلمس روعته وسموّ الشعر فيه فى قصيدته « ضوء القمر » التى يقول فيها :

« كان البدر مشرق الجبين ، يتنقل على ذرا الأمواج .
وقد فتحت النافذة ذراعيها لخطرات النسيم ،
فجعلت الملكة ترنو إلى البحر وهو يتكسر ،
ويطرز مطارف جزائره السود بنقوش أمواجه المفضّضة .

فهوى العود من يدها وهو يرّن ؛
فأصغت . . . فسمعت صوتاً أبحّ يردده الصدى .
أتراها سفينة تركية قادمة من مياه « قوس »
تضرب جزائر اليونان بمجاديفها التترية ؟

أتراها أقواقاً تغطس من حين إلى حين
وتقطع الماء الذى يجرى كاللآلئ على أجنحتها ؟
أتراها جنّاً تصفّر من علٍ بصوت رخيم
وتلقى فى البحر بأطناف البرج ؟

من ذا يعكّر الماء قرب قصر الحريم ؟ .
ليس القوق الأسود المترجح فى أرجوحة الأمواج ،
ولا حجارة الجدار ، ولا إيقاع أنغام
السفينة الثقيلة وهى تزحف على المياه بمجاديفها .

تلك قلوع ثقيلة يتصاعد منها الأنين ؛
ومن حدّق فى قعر البحر الذى ابتلعها
رأى شبه إنسان يتحرك فى جوانبها . . .
هو البدر مشرق الجبين يتنقل على ذرا الأمواج . »

وليست قصيدة « نار السماء » بأقل روعة وجمالاً من سابقتها ، وهى القصيدة التى وصف بها مصر فى مستهل مجموعة « الشرقيات » ، إذ يقول :

« مصر ! الشقراء بسنابلها ، تمتد
حقولها المبرقشة كأنها طنافس ثمينة ؛
ـــ سهول تلو سهول ؛
يتنازعها من الشمال الغمر البارد ومن الجنوب الرمال المحرقة
وهى لا تزال تتبسم
بين هذين البحرين اللذين يقرضانها .

هناك ثلاثة جبال شادها المرء تنطح السماء
كثلاث زوايا من الرخام تحجب عن العيون
قواعدها المغطاة بالرمال ؛
ومن قممها المدببة إلى الرمال المذهبة .
تتسع درجاتها الهائلة شيئاً فشيئاً
فقد وضعت لخطوات سعتها ستة أذرع .

يقوم على حراستها أبو الهول من صوان وردى وآلهة من رخام أخضر

حتى إذا هبت عليها ريح ملتهبة من الصحراء
فلن تستطيع أن تغض جفونها .

. . . .

وتسمق فى السماء المسلات الرمادية ؛
ويجرى النيل أصفرَ مبرقشاً بالجزر
كأنه جلد نمر عند حلول المساء . »

أما قصائده عن اليونان فى عهد ثورتها فهى أروع ما فى مجموعته من قصائد . وقد كان تأثيرها عظيماً فى نفوس معاصريه، إذ حث الفرنسيين فيها على إنهاض اليونان ومساعدتها على الثورة والتحرّر من نير الأتراك وعسفهم . فدوت دوىّ الطبول فى الأوساط الفرنسية . وإذا كان « بايرون » الشاعر الإنجليزى ، قد خدم اليونان فى محنتها وثورتها بسيفه ، فقد خدمها هوجو بقلمه وقصائده الحماسية ، التى استدرت عليها عطف فرنسا والشعوب الأخرى كافة . ومنها قصيدة « كناريس » و « نوارين » و « رؤوس السراى » ، وأهمها تلك القصيدة التى شبه فيها اليونان فى ذاك الوقت بطفل شريد تائه ، يطلب المعونة ليواصل قتاله ، وسمّاها « الطفل » ، وإليك بعضاً منها :

« مرّ الأتراك من هنا ، فبات كل شيء خراباً وحداداً .
ولم تعد « كيبوس » جزيرة الخمر إلا صخرة جرداء ،
كيبوس التى كانت تظللها الأدغال ،
كيبوس التى كانت تنعكس على الأمواج ظلال غاباتها الكثيفة ،
وظلال سفوحها وقصورها ، وظلال الراقصات المغنيات
عند المساء أحياناً من جوقات بناتها .

لقد خلت الديار من أهلها ، إلا طفلا أزرق العينين ،
وحيداً قرب جدران مسودّة ، هو طفل يونانى جالس
وقد حنى رأسه ذلة وخضوعاً ؛

. . . .

آه أيها الطفل البائس الحافى القدمين على الصخور
الشائكة !

. . . .

ما تريد ؟ أتطلب زهرة أم ثمرة طيبة أم أنت تطلب الطير
العجيب ؟

فقال الطفل اليونانى ، الطفل الأزرق العينين :
أريد يا صاح باروداً ورصاصاً : »

لم تقتصر « الشرقيات » على قصائد حماسية أو قصائد فى وصف الطبيعة ، بل اشتهرت أيضاً بكثرة ما كتب فيها من قصائد عن الحياة فى الشرق وعن القصور فيه ، وقد حوت من أسباب الترف والانغماس فى الملذّات ، وعن تلك الحور الرشيقات الجميلات والقيان ورقصات العوالم التى تبعث النشوة واللذة والنعيم فى النفوس ، تحت أشجار النخيل فى المساء وفى ضوء القمر ، كما فى قصيدة » "سارا" فى الحمام » وقصيدة « السلطانة المفضلة » — كما أنه يصف أيضاً تشوقه لرؤية بلاد العرب فى قصيدته « نور مُسهل الصهباء » و « وداع المضيفة العربية » ، وحنينه لرؤية بلاد الأندلس التى رآها فى صباه .

وبينما كانت الأيدى تتخاطف « الشرقيات » نشر هوجو قصته الاجتماعية « آخر أيام المحكوم عليه » حمل فيها حملة شعواء على عقوبة الإعدام لما فيها من قسوة ووحشية . وهى قصة مفجعة ، ذات حوادث مرعبة ، تظهر ما يخالج نفس المحكوم عليه بالإعدام يوم تنفيذ الحكم . وتعد هذه القصة مقدمة لمؤلفاته الاجتماعية ومقالاته العديدة التى طالما طالب فيها بإلغاء بعض القوانين الصارمة ، والعمل على رفع مستوى الشعب العلمى والخلقى — كما سيمر بنا عندما نتحدث عن رواية « البؤساء » .

هوجو والمسرح ـ معركة « هرنانى »

عاد ڤيكتور هوجو فى العام نفسه إلى الكتابة المسرحية بعزيمة صادقة وحماسة شديدة ، فكتب مسرحية « ماريون دى لورم » بالشعر فى أربعة وعشرين يوماً . ولما قرأها على أصدقائه أعجبوا بها كل الإعجاب . إلا أن الرقابة الملكية ، التى كان يرأسها « دى مارتينياك » وزير الداخلية ، لم توافق على تمثيلها ، إذ وجدت أن لويس الثالث عشر وهو أحد أجداد الملك شارل العاشر يظهر فى الفصل الرابع من الرواية بمظهر يحط من كرامته ومن ثم يحط من كرامة الملكية .

فبذل هوجو جهده ليقنع دى مارتينياك بأن الماضى لا علاقة له بالحاضر ، وأنه لن يكون لذلك المنظر أى تأثير فى نفوس الشعب ، ومع ما عرف عن دى مارتينياك من سعة الصدر ومن الميل إلى الحرية فى التأليف ، لم يجب ملتمس هوجو بل أصر على عدم تمثيلها .

وبعد هذه الخيبة ولى هوجو وجهه ناحية الملك ، والتمس مقابلته مؤملا أن ينجح فى إقناعه ، فقابله الملك فى قصر

« سان كلو » وأصغى إلى شرحه الطويل ودفاعه المجيد ، ثم ابتسم وقال له إنه يقدّر شعره حق قدره ويفخر به ولكن لا يسعه إلا أن يوافق دى مارتينياك على قراره . وبذا قُدّر لهذه المسرحية أن تدفن وهى فى مهدها لم تطلع عليها شمس الصباح.

وأراد الملك أن يخفف من وطأة هذا الرفض على هوجو فقرّر أن يعوّضه عما حاق به من الضرر المادى ، فضاعف معاشه فبلغ أربعة آلاف فرنك سنويًّا . ولكن هوجو رأى فى ذلك نوعاً من الرشوة فأبى قبول هذا العطاء الجديد .

ثم صمم أن يؤلف رواية أخرى تظهر على المسرح وتسلم بها كرامته . فلم يأت شهر سبتمبر عام ١٨٢٩ حتى كان قد أخرج درّة مسرحياته « هرنانى » . وهى تلك القطعة الخالدة التى أحدثت فى عالم الأدب والمسرح هزّة عنيفة لم تحدثها مسرحية أخرى ، وقد بلغ التهافت على رؤيتها حدًّا لم يسبق له مثيل .

وتتلخص فى أن ثلاثة كانوا يعشقون « دونيا سول » ، الأول عمها الشيخ « دون روى جوميز دى سلفا » من الأشراف ، والثانى « دون كارلوس » ملك إسبانيا ، والثالث « هرنانى » الطريد لما بينه وبين الملك من ثأر قديم يرجع إلى ما كان بين

والديهما من عداوة أدّت بوالد دون كارلوس إلى قتل والد هرنانى بعد تجريده من ألقابه ومصادرة أملاكه ، مما أوجد الحفيظة فى صدر هرنانى نحو دون كارلوس واعتزامه قتله للأخذ بثأر أبيه .

أما دونيا سول فلا تحب منهم إلا هرنانى ، وقد جاءها ليلا فى قصر عمها حيث تقيم ، قبل الموعد الذى ضربه عمها للزواج منها بيومين ، وطلب إليها أن تستعد للهرب معه فى الليلة التالية إلى الجبال التى يعتصم فيها . فعلم الملك بذلك فحضر فى اليوم التالى لاختطافها قبل هرنانى . وبينما كانت تقاومه حضر هرنانى مع رجاله فقهرتهم قوة الحرس التى أرسلها الملك لمحاصرة القصر وقتلت جميع أتباع هرنانى ، أما هو فقد استطاع الإفلات .

وفى اليوم الذى حدده العم للزواج حضر هرنانى متنكراً فى زى الحجاج لمقابلة دونيا سول بعد أن فشل فى اختطافها ، وطلب إلى العم الضيافة . ثم إن العم رآه معانقاً محبوبته، فثارت ثائرته وأراد القضاء عليه لولا وصول الملك حينئذ للقبض على هرنانى . فلم يسع العم إلا أن يرفض تسليمه حرصاً على شرفه وقياماً بحق الضيافة وقد لجأ إليه هرنانى . فلم ير الملك إلا أن يأخذ دونيا سول رهينة عوضاً عنه وهذا ما كان يسعى إليه . فطار صواب العم واتفق مع ضيفه على قتل الملك ، بعد أن

وعده هرنانى وعداً قاطعاً بأن تصبح حياته ملكاً له جزاء تلويثه شرفه فى منزله ، ولذلك أعطاه بوقه قائلا له إنه سيلبى طلبه إذا سمع صوت البوق .

واشتركا فى مؤامرة واسعة النطاق قام بها بعض الأشراف لعرقلة انتخاب دون كارلوس إمبراطوراً للإمبراطورية الألمانية ولاغتياله . إلا أنه قد نجح رغم هذه المؤامرة وأصبح إمبراطوراً ، وكشف المؤامرة وقبض على أعضائها ، ولكن لم يعاقبهم بل عفا عنهم جميعاً ، وأعاد إلى هرنانى ألقابه وأملاكه وزاد عليها بأن وهبه دونيا سول زوجاً له .

وفى ليلة الزواج ، بعد انتهاء مأدبة العرس ، والجميع فى نشوة السرور ، إذا بصوت البوق يدوّى فى الفضاء ، هو بوق العم حضر يطلب حياة هرنانى . ولما لم يكن فى وسع هرنانى أن يتخلف عن ذلك نهض يودّع حبيبته فى أدق المواقف وأحرجها . إلا أن دونيا سول استوقفته قليلا ريثما ابتلعت سمّاً زعافاً قضى على حياتها ، وتناول هو ما بقى من السم فسقط بجانبها ؛ وانتحر العم أيضاً . وأسدل الستار على ثلاث جثث هامدة .

ها هى ذى الرواية التى أحدثت تلك الهزّة العنيفة فى

جميع الأوساط ، ولا سيما أوساط الشباب المجدد الذى وجد فيها نوعاً مستحدثاً لم يألفه ؛ فتحمّس لها بكل قوة بزعامة « تيوفيل جوتييه » الشاعر الشاب الذى اشتهر بقميصه الأحمر ، بخلاف أولئك الرجعيين الكلاسيكيين الذين رأوا فيها خروجاً على تقاليد الشعر والكتابة . وقد استعرت بين الطائفتين حرب شعواء سببتها هذه المسرحية ، وقامت بينهما معركة حامية الوطيس فى أول عرض لها . فكان لكل طائفة وجهة نظر ، فالأولى ترفع من قدرها وترى فيها مفخرة للمسرح وتثنى على مؤلفها ، والثانية تحط من قيمتها ومن شأن مؤلفها . وأخذت كل طائفة تدافع عن رأيها بحماسة وشدة . وكانت ساحة المعركة « المسرح الفرنسى » .

وقد بكر أنصار هوجو وهم مجموعة شباب « فرنسا الفتاة » من جماعة الفنانين والموسيقيين والشعراء ، فساروا إلى المسرح بملابسهم التقليدية الزاهية الألوان وشاراتهم الحمر وشعورهم المسدلة على أكتافهم ولحاهم الطويلة . ودخلوا القاعة قبل العرض بما يقرب من ثمانى ساعات ليحتفظوا بمقاعدهم قبل احتشاد الجماهير ويستعدوا لخوض المعركة . وأخذ بعض المقرّبين لهوجو منهم والذين تلا عليهم جزءاً منها ، يردّدون ما سمعوه

ويتغنون به ، وقد ملأوا القاعة ضجيجاً وتحمساً .

وأخذت الأنوار تتلألأ واحداً بعد آخر ، وبدأت الصالة تمتلئ رويداً رويداً حتى لم يبق فيها موضع لقدم ؛ ومن بينهم أولئك الرجعيون من الشعراء ورجال الأكاديميه الممثلون للطائفة المناوئه لهوجو ، وقد أخذوا مقاعدهم فى الصفوف الأولى التى حجزت لهم . وكان الجو مكهرباً ، وهدير العاصفة يدوى والتراشق بالألفاظ لا يكفّ لحظة طول هذا الوقت ما بين الطائفتين ، وكاد الأمر يفضى بهم إلى التلاحم قبل عرض الرواية : ولما دقت الدقات الثلاث وانزاح الستار وبدء فى إلقاء الشعر ، بلغت المعركة بين الفريقين حدّ التلاحم ، وازداد استياء الرجعيين حينما رأوا ذلك الخروج عن المألوف ، وأظهروا استياءهم ووصفوا هوجو وأتباعه بالبرابرة الهمجيين ، العاملين على هدم اللغة والشعر ؛ بينما كان أتباع هوجو يدعون أولئك الرجعيين بالمتأخرين بل الأموات ، وصاح زعيمهم تيوفيل جوتييه قائلا : « إلى المقصلة أيها الرُّكب » ، مشبهاً رؤوس هؤلاء الرجعيين الصلع بالركب . مما زاد فى إثارتهم ، فزاد سخطهم ، وكثر تقاذفهم بالسباب والشتائم . ودام ذلك مدة تجاوزت الساعتين طوال عرض الفصلين الأولين . ولما بدأ

عرض الفصل الثالث ابتدأ المحافظون يتراجعون بغير انتظام ، وفى الفصل الرابع شرعوا ينسحبون من المعركة وقد باءوا بالهزيمة والخسران ، ولم يتمكنوا من مواجهة موجة الاستحسان الشديدة التى أظهرها جميع الشاهدين على اختلاف مشاربهم ؛ وعندما انتهى العرض كان الانتصار لأتباع هوجو بالغاً وتصفيق النظارة يصم الآذان .

وإذ كان هوجو فخوراً بأنصاره وانتصاره ، يشاهد من مكانه الثورة بينهم وبين الرجعيين فى آخر استراحة ، تقدّم إليه أحد كبار الناشرين طالباً محادثته خارج القاعة . وهناك عرض عليه ستة آلاف فرنك مقابل حقوق طبع الرواية ، فقبل هوجو بلا تردّد ، فدفعها الناشر فوراً ؛ وقد كان هذا المبلغ نجدة لهوجو إذ لم يكن يملك فى تلك اللحظة أكثر من خمسين فرنكاً .

حاول الكلاسيكيون أن ينتصروا من ناحية أخرى ، فتقدموا بعريضة رفعوها إلى الملك ، التمسوا فيها منه أن يحمى المسرح من عبث المستحدثين ، وأن يحفظ مكانته واحترامه من فضائحهم وتشويههم إياه بتلك المسرحيات المستحدثة ، الخالية فى نظرهم من القيمة الفنية ، والبعيدة عن العرف التقليدى المتبع . فأجابهم

الملك أنه لا دخل له بذلك ، وأن مكانه من المسرح هو فى قاعة العرض كأى فرد من رعيته .

فكان ظهور هذه المسرحية ونجاح هوجو هذا النجاح المنقطع النظير فاتحة عهد جديد للشعراء المعاصرين وللحركة الشعرية الرومنتيكية الحديثة ، إذ خطا بها إلى الأمام خطوات واسعة راسخة ، وبثّ فى النفوس روحاً جديدة ونهض بالشعر الروائى نهضة مباركة ، فتح بها أمام الشعراء آفاقاً جديدة لاحدّ لها .

فذاع صيت المؤلف فى جميع أنحاء فرنسا ، وكتب له شاتوبريان يهنئه بزعامته لتلك النهضة الأدبية الحديثة . ولم تكن الصحافة بأقل إعجاباً به من الجمهور ، إذ ردد كثير من النقاد والكتّاب شدة إعجابهم بالمؤلف ومدحوه وهنأوه بتلك المسرحية الفذة ، وليدة العبقرية ، وقدروا شعرها القوى الفياض الساحر حق قدره .

« نوتردام دى باريس »

كان هوجو إذ ذاك فى ربيعه الثامن والعشرين ، ربع القوام ، غض الإهاب ، له جبهة تسترعى الأنظار بسعتها وبجمالها ، يشعّ منها نور العبقرية والعظمة والإرادة الحازمة ، مسترسل الشعر ، حاد البصر ، عميق النظر ، دقيق الفم ، إذا ابتسم كشف عن أسنان غاية فى الجمال ، وكان أنيقاً فى هندامه رغم بساطته ؛ ولم يكن فى مجموع ملامحه ما ينم عن زعامته لهذه الجماعة الثورية .

وكان لا يزال متيماً بزوجه الفتانة أديل ، وقد رزق منها بعد ابنته ليوبولدين غلامين ، شارل ، عام ١٨٢٦ ، وفرنسوا ، عام ١٨٢٨ ؛ ثم ولدت له طفلة دعاها باسم أمها أديل ؛ فظللتهم السعادة جميعاً . وكان يقضى وقته موزعاً بين نظم الشعر وتأليف المسرحيات والروايات ، واللهو مع أولاده واستصحابهم للنزهة فى الحدائق المجاورة .

وكان منزله بشارع « نوتردام دى شان » محط أنظار كثير من الرواد ، أصدقائه والمعجبين به ، الملتفين حوله

التفاف التلاميذ حول أستاذهم . فهذا « شارل نوديه » محافظ مكتبة الترسانة ، وهذا « ألفريد دى ڤينيي » الشاعر الفيلسوف الشهير ، وها هم أُولاء « أميل وأنتونى ديشان » ، و « ألفريد دى موسيه » الشاب الشاعر النابغة ، و « چيرار دى نرڤال » الكاتب الرقيق ، و « ألكسندر دوما » الروائى الذائع الصيت ، وغيرهم ؛ وها هم أولئك الفنانون يأتون ليشعل كل مشعله من لهيب مذهبه الجديد : « لوى بولنچيه » و « سلستان نانتي » ، و « أشيل ديڤيريا » الذى رسم صورة لهوجو عرضها بواجهة أحد المحال فكانت قبلة أهل باريس ، و « داڤيد دانچيه » الذى صنع عدة تماثيل للشاعر . وأخيراً « سانت بيڤ » الذى لم يكن يلذ له الحضور إلى منزل هوجو إلا فى غيابه يمتّع نظره برؤية زوجه الجميلة .

ولم يكن هؤلاء جميعاً يعدون ڤيكتور هوجو أستاذاً فحسب ، بل مجّدوه ورفعوه أكثر من ذلك ، كما وصفه سانت بيڤ .

« نحن أمامك كالأغصان إذ تنحنى ،
وحسبك نفثة نخرّ لها ساجدين . »

فى هذا الجو المشجّع وفى سورة فرحه بانتصاره ونجاحه

صمم على كتابة رواية « نوتردام دى باريس » وكان قد فكر فيها منذ أكثر من ثلاث سنوات . ولكى لا يشغل نفسه بشيء آخر رأى أن يعتزل الناس طول مدة تأليفها . فى أول سبتمبر سنة ١٨٣٠ ودّع ملابسه الخارجية وأودعها خزانته .، حتى لا تستميله إلى الخروج ، وبعد مضى أربعة أشهر ونصف شهر كتب هوجو خاتمة روايته .

و « نوتردام دى باريس » قصة مملوءة بالعواطف المتباينة وبالحوادث المثيرة . فهنا نحن أولاء فى عهد لويس الحادى عشر فى باريس القديمة ، المكتظة بالسكان والمزدحمة بالمنازل القذرة والأزقة الضيقة ، وها هى ذى الكاتدرائية العظيمة التى طغت على باريس بعظمها . وقد وقف « كلود فرولو » رئيس الشمامسة بها يشاهد « أسمرالدا » الغجرية ترقص مع عنزها « دچالى » المدرّبة ، المذهبة القرنين ، رقصاً اهتزّت له عواطفه ؛ فشعر برغبة شديدة فى الاستحواذ عليها ، وعشقها عشقاً مبرّحاً . أما هى فلم تشعر نحوه بشيء اللهم إلا بالخوف منه والكره له ، وكثيراً ما أغواها وسعى إليها ، ولكنها كانت ترفض حبه بل مصادقته . ولما ضاقت به السبل أوعز فى ليلة مظلمة إلى أحدب كثيب المنظر ، شنيع الصورة ، يدعى

« كازيمودو » ، كان قد ربّاه فى ظل الكاتدرائية ، أن يختطف « أسمرالدا » ويحضرها إليه .

وبينما الأحدب فى طريقه يجرى بها وقد اختطفها ، إذا بأحد الضباط الشبان يعترضه ويخلصها منه ويقبض عليه ، فكان جزاؤه الجلد وعرضه على منصّة عالية ، مكتوف اليدين ، فى أحد الميادين العامة . وبينما هو على هذه الحال ، والدماء تسيل من جروحه أمام ضحك المشاهدين وسرورهم من منظره وشناعته ، إذ به يصيح أن اعطونى جرعة ماء فالظمأ يكاد يقتلنى . فزادت سخرية القوم منه وعلا ضحكهم عن ذى قبل ، إلا « أسمرالدا » ، فريسته أمس ، فقد أشفقت عليه وصعدت إلى المنصة حاملة زجاجة مملوءة بالماء ، ملبية طلبه . أما هو فظنها أول الأمر تسعى إليه للانتقام منه ، ولكنه حينما رآها قد أشفقت عليه بعد الذى كان منه أمس ، انحدرت من عينه الوحيدة دمعة على خدّه وعرف الحب طريقه إلى ذلك الوحش الآدمى .

وكان التعارف قد تم بين « أسمرالدا » ومنقذها الضابط ، واتفقا على أن يلتقيا فى مكان معلوم . وقد استشاط « كلود فرولو » غضباً حينما علم بذلك ، فسعى لدى الضابط فرضى

هذا فخوراً أن يحضر كلود فرولو اجتماعهما متخفياً . وبينما هما فى نشوة غرامهما ، و« أسمرالدا » بين ذراعى ضابطها الجميل يغمرها بقبلاته الحارة ، خرج رئيس الشمامسة من مخبئه شاهراً سكينه وأودعها ظهر الضابط وقفز هارباً .

فقبض على « أسمرالدا » بتهمة الشروع فى القتل ، ولم يكن فى استطاعتها أن تتهم القسيس وقد عرفته فى أثناء هربه ، إذ من ذا الذى يصدق أن قسيساً مرشداً إلى الخير ومنفراً من الذنوب والشر ، يقدم على هذه الفعلة الشنعاء ، ومن ذا الذى يشفع لها وهى نورية ، وهذه الطائفة معلوم عنها أنها منبع الرذائل والموبقات . فاقتنع القضاة بإدانتها وحكموا عليها بالاعتراف علناً بجريمتها أمام كاتدرائية نوتردام دى باريس ثم بالشنق فى ساحة « جريف » .

فلم تجد بداً من الخضوع لهذا الحكم الجائر ، وليس فى وسعها أن تنقضه ، فكل الأدلة ضدها . فاعترفت مضطرة بجريمة لم ترتكبها أمام الشعب وأمام قسيس الكاتدرائية ، وقد كان بينهم كلود فرولو ، فعرض عليها حبه مقابل خلاصها ، فلم تقبل وفضلت الموت على البقاء بجوار هذا المجرم . وبينما الجلاد يستعد لأخذها لينفذ فيها حكم الإعدام فى ساحة

« جريف » ، إذ بكازيمودو الأحدب ينقض عليه ، متدلياً على حبل معلق بدعامة الواجهة ، ويضرب به الأرض ويختطفها منطلقاً بها إلى داخل الكاتدرائية صائحاً : « إلى الحمى ! إلى الحمى ! » ؛ وكان للكاتدرائيات فى القرون الوسطى حصانة دينية ، ومن احتمى بها أمن ولا يجوز القبض عليه إلا بقرار من البرلمان .

ظلت « أسمرالدا » فى حمى نوتردام دى باريس ، وفى رعاية الأحدب الساهر عليها كالكلب الأمين . إلا أن كلود فرولو راح يتقرب إليها ويحاول استمالتها واعداً إياها بالخلاص وبالعفو ، فلم تلتفت إليه ؛ فتملكته سورة الغضب وصمم على الانتقام منها ، وتقدّم إلى البرلمان وسعى لدى أعضائه لكى يستصدر قراراً يحرمها من حق الألتجاء إلى الكاتدرائية والاحتماء بها .

فلما نجح مسعاه وصدر القرار شعر بالندم وبوخز الضمير وعزّ عليه أن يفقدها ، فأوعز إلى فئة من المتسولين الذين كان لهم فى وسط باريس حىّ خاص لا يجسر على الدخول إليه أحد من غير طبقتهم حتى الشرطة أنفسهم ، فأوعز إليهم بمهاجمة الكاتدرائية ليلا واختطاف « أسمرالدا » قبل أن تتسلمها

الشرطة ، ولما كانت « أسمرالدا » من أفراد تلك الطبقة وكان لها عندهم حظوة كبيرة واحترام ، رأوا فى تحريض القسيس فرصة ذهبية طالما تمنوها لخلاصها . فتجمعوا ووضعوا الخطة وأعدوا العدة ، وعندما أرخى الليل سدوله وتوارت المدينة تحت الظلام ، هاجموا الكاتدرائية حاملين المشاعل . غير أن الأحدب الأصم لم يكن على علم بتلك المؤامرة ، وظن أن المهاجمين يريدون الانتقام من « أسمرالدا » بتسليمها إلى الشرطة ، فأغلق الباب فى وجههم وقاومهم مقاومة عنيفة تمنعهم من دخول الكاتدرائية أو التسلل فوق جدرانها ، وأحدث ضجة شديدة حدت بالشرطة إلى التداخل ، فقتل بعض المهاجمين وقبض على البعض الآخر وهرب من هرب . أما كلود فرولو فإنه اتصل بالفتاة وخيرها آخر مرة بين أن تتبعه أو أن يسلمها إلى الشرطة ؛ فرفضت أن تتبعه فدفعها إليهم . وفى أثناء إعدامها علم الأحدب أن سيده هو الذى سلمها فنقم منه وانتهز فرصة وجوده فى أعلى الكاتدرائية فدفعه من أعلاها دفعة شديدة ألقته على الأرض صريعاً مهشماً . ولم يمض إلا قليل حتى كانت جثتان متعانقتان فى قبو « مونفوكون » المعد لإلقاء جثث المحكوم عليهم بالإعدام ، هما جثة الأحدب معانقاً جثة «أسمرالدا» ، إذ لم يطق البقاء بعد موتها.

هذا ملخص تلك القصة التى تعدّ من مفاخر قصص هوجو ، وقد أظهر فيها قدرة غريبة فى خلق أبطالها من نوع غير مألوف . فهذا الأحدب كما صوره إن دلّ على شىء فإنما يدل على براعته وابتكاره بما أودع هذه الشخصية الحيوانية من عاطفة تتصف بكل معانى الكرامة ؛ وجعله تلك الكاتدرائية مسرحاً لحوادث الرواية وإدماجها فى كل جزء منها صيرها شخصية حية تعد من أبطال الرواية .

نجحت القصة نجاحاً عظيماً لا يماثله إلا نجاح سابقتها « هرنانى » على المسرح ، فتخاطفتها الأيدى وقرأها الجميع ، وأعجبوا بمؤلفها الذى عاد بهم إلى القرون الوسطى ، وأحيا شعوبها وعرض عليهم مثلاً من عاداتهم وقوانينهم وخرافاتهم . ثم أعجبوا أيضاً بما أظهره لهم من القوة التى كانت كامنة فى الكاتدرائية فى تلك العصور كأنّ فى كل حجر منها روحاً تهتز لمختلف العواطف وتتأثر بها ، فكانت مثلا لتلك العبقرية الفذّة التى خلقت تلك الروعة فى التصوير .

آخر عهده بالمسرح

دأب هوجو على التأليف وعلى نظم الشعر إلى أن شبت ثورة يوليه سنة ١٨٣٠ وأحدثت ذلك الانقلاب السياسى العظيم الذى ذهب بالملكية الشرعية ، فأنزل شارل العاشر عن عرشه وأقيم لويس فيليب خلفاً له ، فلبي مطالب الشعب ومنحه الدستور . وشارك شاعرنا الشعب فى حماسته بقلمه ، ونظم قصيدة « ما أُملى بعد يوليه سنة ١٨٣٠» ، مدح فيها الحكومة الجديدة وهنأ الشعب بانتصاره وعبر عن حبه لفرنسا الجديدة الحرّة . وقد نشرت فى جريدة « الجلوب » ، لسان حال الشعراء المجددين ، مع مقدمة من صديقه سانت بيف .

ترك الشاعر منزله فى شارع نوتردام دى شان واستأجر شقة فى منزل يطل على « الميدان الملكى » القديم ، (ميدان القوج حالياً) بين المنازل العتيقة الجميلة ذوات البواكى الطويلة ، حيث يشعر المرء بأنه يعيش فى العصور الماضية ، فى القرون التى بنيت فيها ؛ وكان لهدوئه وسكونه خير معين لهوجو فى عمله .

وكانت الدار التى سكنها واسعة ، ذات بهو فسيح يشبه كثيراً ردهات قصور القرون الوسطى ؛ وفيها غرفة للطعام فرشت بالأبسطة الثمينة وكست جدرانها الستائر النفيسة وحشرت فيها حشراً تلك الخزائن القديمة الأثرية التى أغرم هوجو بجمعها ؛ وفيها غرفة للاستقبال واسعة نثرت فيها تماثيل كثيرة من النحاس والخزف وغيرها ؛ يلى ذلك غرفة المكتب المملوءة بالكتب والمجلدات بجانب كثير من الزهريات والأوانى الخزفية التى كان هوجو مغرماً أيضاً بجمعها .

عاش الشاعر فى هذا المنزل الرحب الهادئ أكثر من خمسة عشر عاماً ، سعيداً بأولاده ، مكباً على عمله . فكثر إنتاجه ، وألّف مسرحياته وقصائده الشعرية الواحدة تلو الأخرى . فأحرز النجاح الكبير والمال الوافر وعاش فى سعة من العيش .

وفى اليوم الحادى عشر من شهر أغسطس سنة ١٨٣١ ، وقد أُلغيت الرقابة على المسرح ، مثّلت مسرحية « ماريون دى لورم » التى لم يوافق شارل العاشر ووزيره دى مارتينياك على تمثيلها من قبل . فكان نجاحها عظيماً ، وقد تقبلها الشعب بحماسة فائقة . ولم تخل هذه المسرحية أيضاً من نقد الرجعيين

الذين رأوا فيها لوناً آخر لم يألفوه من قبل . وقد حدث وقت تمثيلها ما حدث وقت تمثيل هرناني ، لكن الرجعيين قد تقهقروا أمام موجة الاستحسان التى أبداها الجمهور وما أظهره من الثناء على الشاعر الذى أمكنه أن يبرهن فى هذه المسرحية على أن الحب الشريف يعيد للعاهرة شرفها ومكانتها .

ومثّلت فى السنة التالية مسرحية « الملك يلهو » فلم تنل أى نجاح . ثم أوقفت الحكومة تمثيلها بعد أول عرض لها إذ أنها تحرض على قتل الملك الفاسد . فلم يرض هوجو بهذا التدخل فى الشؤون الفنية وأقام الدعوى على الحكومة مطالباً إياها بتعويض مادى ، محتجاً بأنه ليس من حق الحكومة أن تمنع تمثيل رواية ما دامت الرقابة على المسرح قد ألغيت . إلا أنه خسر الدعوى وحكم عليه بدفع الأتعاب . فدفعها فخوراً بأنه نازع الحكومة وقاوم طغيانها وأحدث تلك الضجة .

وفى سنة ١٨٣٣ مثلت له مسرحية أخرى كانت نثرية ، وهى مسرحية « لوكريس بورچيا » ، فنالت نجاحاً عظيماً وكانت انتصاراً رائعاً أنسى الناس خذلانه السابق فى مسرحية « الملك يلهو » . وقد فتنت هذه المسرحية ألباب الجمهور فكان تصفيقهم فى أثناء تمثيلها يشق عنان السماء ، وبلغ تحمسهم لها

أشدّه حين غادر المؤلف القاعة بعد العرض ، فحلوا الخيل من عربته وجرّوها بأيديهم صائحين وهاتفين له . ولما وصل إلى منزله تخلص بصعوبة من تلك المظاهرة الصاخبة العظيمة التى كانت موضوع الحديث مدة طويلة . — وأخيراً كانت هذه الرواية السبب فى إنماء العلاقات بينه وبين « جوليت درooيه » إحدى ممثلات المسرحية ، وسنتحدث عنها فيما بعد .

تتابعت مسرحياته بعد ذلك ، فمنها ما نالت النجاح ، ومنها ما كان نصيبها الإخفاق ، وأشهرها « مارى تودور » و « أنچلو » و « أسمرالدا » المقتبسة من روايته الشهيرة و « روى بلاس » ، حتى كان عام ١٨٤٣ فمثلت فى ٨ مارس مسرحية « البرجراف » فكانت أسوأ ختام لمسرحياته ، إذ أنها سقطت سقوطاً شنيعاً رغم قوة شعرها وجمال بعض المواقف فيها . ويرجع سبب سقوطها إلى تطرّف المؤلف فى الخروج بها عن المألوف لدى الجمهور فلم يستسغها . وقد انتهز الرجعيون هذه الفرصة ، فرصة مغالاة هوجو فى التطرّف ، فدسوا له كثيراً وأثاروا الجمهور عليه فى أثناء التمثيل وقد أخذ يحنّ للمسرحيات القديمة ، فهاج وماج ، فكان حظ الرواية من النقد والاستهزاء ما تألم له هوجو فصمم على هجر المسرح ، وكان هذا آخر عهده به .

المجموعات الشعرية

فى تلك المدة ما بين عام ١٨٣٠ وعام ١٨٤٠ لم يكف الشاعر يوماً واحداً عن نظم القصائد ، وكان يجد من نفسه ما يدفعه إلى نظمها ونشرها مجموعات . فنشرت له أربع مجموعات قيمة ، هى « أوراق الخريف » و « أغانى الغسق » و « المناجاة القلبية » و « الأشعة والظلال » وهذه المجموعات رفعته إلى القمة وأنالته عن جدارة إعجاب أهل الأدب أجمعين .

فالأولى من هذه المجموعات ـ قد نشرت عام ١٨٣١ ـ تظهر لنا ما كان يشعر به من سعادة الحياة الأسرية وعذوبتها ، وما كانت تبعثه من ذكريات قديمة ولذة حالية وإلهام هادئ ، بعد تحمسه لتأييد مذهبه الرومنتيكى وبعد نشوته بانتصاره . وقد قال عن مجموعته هذه فى مقدمتها إنها « كأوراق الخريف المتساقطة ، وليست بقصائد ضوضاء وجلبة وضجيج بل هى أشعار تشرق صفاء وهدوءاً ، صادرة عن الأسرة والمنزل والحياة الشخصية ؛ وهى نظرة مؤثرة عن الماضى والحاضر » .

في هذه المجموعة الجميلة يذكر الشاعر عهد صباه بين إخوته ووالدته التي كان يحبها حباً جماً ، ويذكر والده القائد العظيم ، ونابليون إذ رآه ذات يوم ذاهباً إلى البانتيون « صامتاً هادئاً كأنه إله من فولاذ » ؛ كما يتناول بالوصف فيها كثيراً من المناظر الريفية البديعة الساحرة وشروق الشمس وغروبها ، فهو يقول :

« أحب المساء الرائق الجميل ، أحب المساء ؛
إذا ذهّب واجهات القصور القديمة
الغائصة تحت أوراق الأشجار ؛
وإذا امتد الغمام قبيل الغروب كأمواج من النار ،
وأطلعت أشعة الشمس في زرقة السماء جزراً من السحب ... »

ونجد في هذه المجموعة بعض القصائد الاجتماعية ، يحث فيها الشاعر أولئك الأغنياء والموسرين على الشفقة والرحمة بالفقراء والمعوزين :

« أعطوا أيها الأغنياء ! إنّ الصدقة أخت الصلاة . . .
أعطوا ، إن الله الذي ينعم على الأسر
يعطي بنيكم القوة ويعطي بناتكم الجمال . »

كما نجده فى بعضها الآخر يعترف بطهارته فى شبابه . ويعبر عن آلامه وآماله ، وعن غروره وطموحه ، وشدة تعلقه بحياته الزوجية وأولاده ؛ وقد كان أروعها تلك التى نظمها فيهم .

ويرجع تنوع إلهامه هذا الى ثورته النفسية ورقة شعوره الذى يهتز كلما مسه عامل من العوامل الخارجية ، كما قال فى قصيدة له :

« إن لمعة أمل أو نفحة خطر
تبرق لها روحى الشفافة بريقاً أو تجف وجيفاً
كأن روحى قد خلقها الله الذى أعبده ووضعها
فى مركز الكون صدى يردد ألف صوت معاً . »

ومن ناحية أخرى نجده يصرح بأن رسالة الشاعر ليست النظم للغناء فحسب بل عليه أن يحثّ على العدالة ويدافع عن الحق ، ولو أدّى به الأمر أن ينسى الحب والأسرة ؛ وعليه أن يثير الحماسة فى النفوس ويخوض ميادين السياسة ويعنى بالأمور الخلقية والاجتماعية .

أما ما نجده فى مجموعته الغنائية الثانية « أغانى الغسق » فهى القصائد التى مجد بها نابليون فجاءت فيضاً من وحى إلهامه ،

وهى « نابليون الثانى » و « إلى العمود » وقد عبر فيها عما كان يحسه ويشعر به من حبّ « للنسر » العظيم الذى دوّخ أوربا بأسرها ؛ مع قصائد أخرى يحثّ فيها على حبّ الوطن وحب الحرية . أما بقية ما فى هذه المجموعة من قصائد فلا تختلف فى جوهرها عن قصائده فى المجموعة الأولى ، إذ أنها تدور حول أسرته وشخصه ، وتفصح عما يخالجه من شكوك ، وما يشعر به من مرارة مما يوجه إليه من نقد . ثم يذكر مودته لزوجه وعواطفه نحو محبوبته الجديدة « چوليت د روويه » .

ومجوعته الثالثة « المناجاة القلبية » التى أهداها إلى روح والده ، فأهم ما فيها تلك القصائد التى خلد بها ذكرى والده الجنرال ووصف مآثره ، مع احتجاجه الصارخ على الحكومة التى لم تخلد ذكراه بكتابة اسمه بين أسماء قواد نابليون على قوس النصر فى باريس . وباقى المجموعة لا يختلف كثيراً عن المجموعتين السابقتين من حيث تنوع الموضوعات فيهما ، فهو يعظم الإمبراطور فى قصيدة « قوس النصر » ، ثم يعبّر عن عواطفه نحو أسرته وأهله .

والمجموعة الرابعة «الأشعة والظلال » التى نشرت سنة ١٨٤٠ نجده قد اختص بها والدته وشعوره نحوها وحبه لها وميله إلى

ذكرها ، وتحدث عن ذكريات طفولته المثيرة ، وعن حبه للطبيعة وجمالها ، وعطفه على البائسين ، وعاطفته لمحبوبته . ونجد أيضاً فى هذه المجموعة أول قصيدة نظمها فى البحر والبحارة وعنوانها « ليلة فى المحيط » (Oceano Nox) .

امتازت المجموعات الأربع ، التى تعد من أجمل مجموعاته ، بجزالة شعرها ورصانته ورقته ، وبجمال أسلوبه وعذوبة ألفاظه الموسيقية وعظمة الخيال فيه . ولم ينشر بعدها أية قصيدة حتى عام ١٨٥٣ لانشغاله بالمسائل الاجتماعية السياسية .

علاقة هوجو بجوليت درroويه

كان الشاعر الناقد « سانت بيڤ » من أقرب أصدقاء هوجو إليه فقد ناصره بقلمه إبان نشأته فى سنوات الجهاد الأولى المملوءة بالنضال والانتصارات الأدبية ، وقد أنزله هوجو من نفسه منزلة ممتازة فكان يدعوه دائما إلى زيارته . وكانت « أديل» زوجة شاعرنا تحضر أغلب هذه الاجتماعات صامتة، ثم أخذت تشترك فى الحديث . وقد أثر فيها « سانت بيڤ » بعذب حديثه وبليغ عبارته ، رغم قبح منظره وخبث أخلاقه ؛ وأخذ هو بجمالها وسواد شعرها وبياض بشرتها ودعج عينيها ، فافتتن بها .

ولما شعر بحبه الجارف لها تعمد الحضور إليها عند تغيب هوجو حتى ينفرد بها . وكانت هذه الزيارات عادة بعد الظهر ما بين الثالثة والخامسة ، حين يخرج هوجو للتريض فى حدائق باريس ؛ فيجد « أديل » فى حديقة منزلها تلهو مع أولادها ، فيجالسها ويشكو إليها طفولته التعسة وحوادثها المؤثرة ووحدته الحالية وشقاءه ، فتغلبها الشفقة عليه . وما زال بها يثيرها حتى استدر عطفها عليه . فراحت تكثر من دعوته محاولة

التخفيف عنه بحديثها ، معتقدة فى قرارة نفسها أنها بذلك تؤدى له أجل خدمة إنسانية ، ولم تكن تدرى حقيقة نواياه ، وما كان هوجو يتصور أن علاقة زوجته الجميلة الطاهرة بهذا الشاعر القبيح المنظر تجاوز ما تقتضيه الصداقة من مجاملة وتنزلق إلى العشق والوله ؛ حتى إنه لما رزق ابنته الأخيرة ودعاها باسم أمها « أديل » طلب من سانت بيف أن يكون كفيلاً لها ، فقبل مسروراً .

ولما رأى هوجو أن العلاقات زادت عن حد المألوف ، بدأ الشك يتسرب إلى نفسه ، فتألم كثيراً وطلب إلى « سانت بيف » ألاّ يجيء إلى منزله فى غيابه . فكانت صدمة للناقد . إلا أنه تغلب عليها بأن طلب إلى الزوجة أن تقابله خلسة فى كنيسة مجاورة للمنزل ، ففعلت ، وكانا يجتمعان هناك فى ظل الكنيسة ، معصومين من الخطيئة ، ولكن ذلك لم يكن ليرضى العاشق كثيراً.

وشعر هوجو بتحول كبير فى « أديل » نحوه ، فقوى الشك لديه وأخذت الغيرة تلذعه ، رغم ما كان يرى من حبها له مع إخلاصها لسانت بيف الذى غمرها بحبه ، ذلك الحب الذى حاولت أن تجعله نقيًّا خالصاً من كل شائبة .

وقد دامت تلك الحال ثلاث سنوات ، حتى كتب هوجو

مسرحية « لوكريس بورچيا » التى مثلت على مسرح « سان مارتان » . وقد أسند دور الأميرة « نجرونى » إلى چوليت درودويه الممثلة الشابة ، فقبلت هذا الدور على صغره قائلة لمدير المسرح « لا يمكن الانتقاص من قدر أى دور مهما صغر فى رواية يكتبها هوجو » .

وكانت چوليت فى السابعة والعشرين من عمرها ، بارعة الجمال ، واسعة العينين برّاقتهما ، صغيرة الفم ، يحوط وجهها البيضاوى الشكل هالة من الشعر الأسود الغزير اللامع ؛ أما جسمها فأجزاؤه رشيقة متزنة فى دقة ونظام جدير بأن يكون نموذجاً للمثالين .

ولم تكن حياتها خالية من المآسى الغرامية ، فقد تهافت عليها كثيرون من الأغنياء وذوى الجاه ، وكان آخرهم الأمير « داميدوف » الذى أغدق عليها كثيراً من هداياه الثمينة وأنفق عليها أموالاً طائلة . بيد أنها حينما رأت هوجو على المسرح فى أثناء التمرينات استحوذ عليها ذهول وتمنت لو تكون له خليلة .

أما هو فكانت نظرته إليها أول الأمر نظرة عابرة ، ثم تحولت إلى عاطفة حب ، أذكاها ما كان يلاحظه من


مدام فيكتور هوجو
فيكتور هوجو عام ١٨٣٣
سانت بيف
جوليت دروويه عام ١٨٣٣

اهتمامها بشأنه ، وهو الرجل الذى نكب فى زوجته وصديقه . وهكذا بدأت بينهما تلك العلاقة التى دامت أكثر من نصف قرن .

غرق العاشقان فى لجة غرامهما مسرعين ، فلم تكد تنتهى التمرينات ويبدأ تمثيل الرواية حتى كانت الخطوة الأولى فى سبيل تقربهما قد تمت . ولما كانت دواعى المسرح تقتضى أن يتقابلا كثيراً كانا ينتهزان الفرص للخروج معاً إلى الحدائق أو إلى تناول الطعام فى الريف . وكثر تغيب هوجو عن منزله محتجًّا بأن الحياة المسرحية وضرورة إشرافه على كل شىء بنفسه يضطرانه إلى هذا التغيب .

وقد بلغ من شدة حبه لجوليت أن نظم فيها قصائد كثيرة أشرنا إليها فى الحديث عن مجموعاته الشعرية الأربع السالفة ، وقد أودع تلك القصائد كل مكنونات قلبه لمحبوبته ، كما ارتفع بها فى وصفه لها فوق مستوى البشر . ومن أبدع تلك القصائد قصيدته التى قال فيها :

« وبما أنى وضعت شفتىّ فى كأسك التى ظلت فائضة ،
وألقيت بين يديك جبينى الشاحب ،

واستنشقت أنفاسك العذبة المتصاعدة من روحك التى هى أريج عطر فى الظل المتوارى ،

« كما أنه أتيح لى أن أصغى إليك وأنت تقولين لى
الكلمات التى تنشر ما طواه القلبُ من الأسرار ،
ولما رأيت ثغرك البسام يفترّ على ثغرى
وعينيك تذرفان الدمع فوق عينىّ ،

. . . .

قلت للسنين التى تمرّ مرّ السحاب :
أسرعى ، أسرعى ! ولا تتمهلى وانقضى سراعاً ! فلا آبه بالمشيب !
امضى أنت وأزهارك الذابلة ،
فنى قلبى زهرة لا يستطيع أحد أن يقطفها ! »

وقد أخذ الشاعر منذ معرفته بجوليت يحاول أن يسترد لها مقامها وشرفها ويرفع من شأنها يمحو ماضيها الملوّث ، فكتب هذه القصيدة الجميلة :

« لا تهينين امرأة قد هوت !
فمن يدرى العبء الذى قد ناءت به حتى سقطت هذه

النفس المسكينة !

ومن يعلم مدى الزمان الذى قاومت فيه آلام الجوع !
من منا لم يقف على أحوال النساء البائسات
عند ما عصفت بهن ريح الشقاء فزعزعت من عفتهن
وهن يتشبثن بها طويلاً بأيديهن التى أصابها الوهن !
وهكذا ترى فى طرف الغصن
قطرة رذاذ تتلألأ والسماء تلمع فيها ،
فهى تهتز مع الشجرة وترتجف وتقاوم
وقبل سقوطها تحاكى لؤلؤة وبعد سقوطها تشبه طينة !

والمذنبون فى ذلك نحن ؛ وأنت أيها الغنى ؛ وكذلك ثروتك !
على أن هذه الطينة لا تزال تحتوى على الماء الصافى .
وقليل من أشعة الشمس أو من شعاع الحب
يكفى لكى تخرج هذه القطرة الصافية من الطينة
وتعود لؤلؤة درية برونقها الأول ؛
وهكذا كل شىء مرجعه إلى النور . »

ظلت حياتهما أنشودة عذبة للهوى الشباب وفى كل منهما فى الآخر حبًّا وغراماً ، ولم ينغص حياة چوليت إلا ما

كان يلفحها من غيرة هوجو وامتعاضه من حياتها المسرحية وذكرى ماضيها . فتركت التمثيل إلى غير رجعة ، وقطعت علاقاتها بأصدقائها جميعاً ، وانقطعت إليه ووهبته نفسها وحياتها. فزاد تقديره لها وأكبر منها هذا الإخلاص ، فكتب إليها مرة يقول : « صنع الله يدىّ لأصلح حياتك المنهارة ، وروحى لأعشق قلبك ، كما صنع شفتىّ لأقبل قدميك » . وقد تركت أيضاً حياة الترف التى اعتادتها والتى كانت تحياها ، وسكنت منزلاً بسيطاً وضيعاً ، وأضفت عليه من فنها وروحها وحبها ما جعله حقًّا عش غرامها ؛ وعانت الضيق والفقر والبرد ، وضحت بكل شىء من أجل حبها ، فهو سعادتها وهو ثروتها وهو كل شىء لديها . وقد قالت لحبيبها ذات مرة : « إنّ فقرى وأحذيتى الخشنة وستائرى القذرة وملاعقى الحديدية وبعدى عن كل ترف وأية لذة غريبة عن حبنا تشهد فى كل ساعة بل فى كل دقيقة بأنى أحبك كل الحب » .

واعتادت نمط حياته فكانت تساعده مساعدة فعالة فى عمله ، إذ كان يقضى عندها فترات طويلة فى الكتابة على مكتب أعدته له . وكانت تنقل له مسوداته وتجمع له الصحف والمجلات والمقالات التى تتحدث عنه ، وبالاختصار تفانت معه

فى عمله إلى أقصى حد .

وفى صيف ١٨٣٤ سافرا معاً إلى وادى « بييفر » وقضيا بضعة أيام كانت أسعد أيام حياتهما ، تغمرهما العاطفة القلبية الصادقة . وتعوّدا بعد ذلك أن يزورا كل عام هذا الوادى الجميل الهادئ ، ويقضيا بضعة أيام من الصيف بين رياض هذاء الريف البديع وأشجار الغابة الغناء ، أو فى كنيسة الوادى الأثرية فيبتهلا إلى ربهما ليديم حبهما ، تلك الكنيسة التى قال عنها فى قصيدة غراء من مجموعة «أغانى الغسق» :

« كانت كنيسة متواضعة ذات قوس منخفض
تلك الكنيسة التى دخلناها ،
حيث مرّت وبكت أرواح عديدة
منذ ثلاثمائة عام.. »

وفى هذا الوادى (عام ١٨٣٧) نظم قصيدته الرائعة « حزن ألمپيو » ، وقد عبر فيها عن خوفه من سرعة زوال السعادة البشرية وتحدث عن قسوة الطبيعة التى لا تحتفظ بالذكريات ، وعن تجدد السعادة باستذكارها . وهذه القصيدة من مجموعة « الأشعة والظلال » ، وفيها يقول :

« قليل من الوقت يكفى ليغير كلى شىء !
أيتها الطبيعة الهادئة سرعان ما تنسين ! . . .
لا يوجد شىء مما عرفناه أمس ؛
فقد شتتت الرياح كتلة الذكريات
كما تشتت ركاماً من الرماد الخامد البارد !
ألن نحيا بعد ذلك ؟ وهل مضى وقتنا؟ . . .
من حيث مررنا سيمر غيرنا . . .
لا سبيل إلى أن يتم امرؤ شيئاً فى هذه الحياة ؛ . . .
نستيقظ كلنا قبل أن ينقضى الحلم ؛
فكل شىء يبتدئ فى هذه الدنيا وينتهى فى مكان آخر ...
إذن سلمنا إلى النسيان أيها المنزل وأيتها الحديقة والظلال !
وغردى أيتها الطيور ، واجرى أيتها الجداول ، وانمى أيتها الأوراق !

فالذين تنسونهم لن ينسوكم . . .
إن النفس فى زاوية يكاد ينتهى عندها الوجود
تشعر بشىء يخفق تحت حجاب . . .
هى الذكرى المقدسة التى ترقد فى الظلام ! »

فى ذلك الوقت كانت مدام ڤيكتور هوجو تتألم

كثيراً من علاقات زوجها بجوليت ، وتكتم ألمها هذا إذ لم تكفّ يوماً عن حبه ، وظلت تفاخر بشهرته وتبدو فى كل ناد محبة وفية له ، واسعة الصدر ، تدرك أن لكل رجل عظيم ميوله وضعفه .

أما « سانت بيف » فقد استغل هذا الموقف وحاول الوصول إلى مبتغاه من الزوجة الأمينة بأن تخون زوجها ، فطفق يكثر من التردد عليها ويحاول الترفيه عنها بمواساتها ، ولم ينس فى الوقت نفسه أن يلوم صديقه الزوج على خيانته ويهوّل من ذلك أمامها بل تجاوز هذا إلى انتقاده والتشنيع به فى كل مكان . ولما نشرت مجموعة هوجو الأخيرة « الأشعة والظلال » انتقدها نقداً مرًّا فى « مجلة العالمين » (La Reoue des deux Mondes) وذمه ذمًّا لاذعاً لجمعه بين زوجته وعشيقته فى قصائد المجموعة . فساء « أديل » نقده وذمه لزوجها وتكشفت لها نفسه عما بها من خسة وحقارة ، فقد كانت تعجب بعبقرية زوجها وتحبه حبًّا خالصاً . ومن ثم بدأ الشقاق بينها وبين الناقد . أما هوجو فقد تألم جدًّا مما ناله من صديقه القديم الذى طالما مجده وأثنى عليه ؛ فكتب إليه يعلمه بقطع كل علاقة بينه وبينه ، وأنه لا يريد أن يراه فى منزله بعد اليوم ، فلم يعبأ « سانت بيف » بهذا الخطاب

ومضى فى تردده على المنزل ، رغم شعوره بنفور « أديل » منه ، متحاشياً مقابلة زوجها . وذات يوم وجده هوجو فى داره فثار ثائره وقذف به إلى الشارع . فكانت هذه آخر العلاقات الشخصية بين سانت بيف ، بين هوجو وزوجته . وقد سافر بعد هذه الإهانه إلى «لوزان» بسويسرا والتحق بجامعتها وقام بتدريس « تاريخ دير پور روايال » فيها ، الذى تعد من تحف النقد الأدبى فى القرن التاسع عشر .

حياة هوجو السياسية والاجتماعية
(الفترة الأولى)

كان أول مجهود بذله هوجو فى الناحية الاجتماعية هو يوم كتب رواية « آخر أيام المحكوم عليه » التى طالب فيها بإلغاء عقوبة الإعدام لما رآه فيها من القسوة والوحشية . وقد تولدت فيه الرغبة منذ ذاك الحين إلى طرق أبواب هذه الناحية والكتابة فيها ، ليقينه بأن ذلك واجب الشاعر ، وأن عليه أن يركز قلمه وعقله لخدمة المجتمع . وقد كتب فى مقدمة مسرحية « لوكريس بورچيا » هذه الكلمات التى تعبر عن اتجاهه الاجتماعى والسياسى : « إنّ فى المسائل الأدبية كثيراً من النواحى الاجتماعية . فالتأليف يعدّ عملاً والمسرح منبراً وكرسيًّا للتدريس . . . والشاعر مكلف السهر على الأرواح وتهذيبها » . وقال الكلمات نفسها فى مقدمة « أنچلو » : « المسرح اليوم أقرب إلى المدرسة منه فى أى زمن مضى . . . ينبغى أن يكون فى كل مسرحية جميلة فكرة اجتماعية نافعة . . . لقد اتسعت آفاق الفن إتساعاً عظيماً فى عصرنا هذا ،

فكان الشاعر يقول فيما مضى " الجمهور " ، أما اليوم فهو يقول " الشعب " . . . » .

وظهر اتجاهه هذا أوضح ما يكون فى خطاب انضمامه إلى الأكاديمية الفرنسية عام ١٨٤١ ، وكان قد رشح نفسه من قبل للعضوية فيها ثلاث مرات وفشل ، فكان خطابه اجتماعياً سياسياً أكثر منه أدبياً ، إذ نجده يقول : « إن تربية الشعب بإنشاء المدارس والمعامل ودور الكتب ، والإصلاح التدريجى للفرد بوساطة القانون ، إنما هما الهدف الحقيقى الذى يجب أن تتوخاه كل حكومة عادلة وأن يعمل كل مفكر مخلص على تحقيقه » . ثم عرج فى خطابه على الناحية السياسية فمدح نابليون وأثنى عليه وعلى سياسته ، كما أثنى على سياسة فرنسا إذ ذاك .

فكان خطابه على هذا النحو غير ما كان ينتظر من عضو جديد فى الأكاديمية ومن شاعر وكاتب فى طبقته ومنزلته ، إذ كان من المتوقع أن يكون خطاباً أدبياً قبل كل شىء . وقد ظن البعض أن هوجو إنما قصد بخطابه هذا أن يكون دعاية له لترشيح محتمل لدار النيابة .

ونجد له آراء سياسية بحتة فى كتاب له عنوانه « الراين »

نشره عام ١٨٤٢ عن رحلة قام بها مع چوليت دروويه إلى شرق فرنسا وإلى ألمانيا ، وفيه يبدى آراءه فى نظام أوربا بأسرها ، مشيراً بوجوب تغيير هذه الخريطة ، وبخلق دول وبمحو أخرى ، وبتعديل الحدود القائمة بينها ، وبتكوين أوربا تكويناً جديداً كما يشاؤه هو .

وفى الواقع أن حياة هوجو قبل هذا التاريخ لم تكن فى يوم من الأيام خالية من السياسة أو من الميل إليها . فقد كان فى بدء نشأته ملكيًّا متطرفاً ، جاهد بعنف فى سبيل الملكية بأناشيده التى كان لها من الأثر ما كان للخطب والمقالات السياسية ، مطالباً تارة بعودة « البوربون » ومرة أخرى بالثناء على أبطال حركة مقاومى الثورة وضحاياها . غير أنه لم يلبث أن تحوّل فجأة وأظهر ميله الشديد إلى الحرية وإلى حزب الأحرار فى عهد شارل العاشر ولويس فيليب ، وأخذ يناصره بقصائده ومقالاته ، مناشداً الشعب التفانى فى حب الحرية والوطن ، مغالياً فى التحمس لنابليون وإعادة عظمة الإمبراطورية .

وفى عام١٨٣٧ فى اليوم العاشر من شهر يولية حدث حادث خطا بهوجو فى الناحية السياسية خطوات واسعة . إذ دعا الملك لويس فيليب أعلام الأدب فى فرنسا ، أمثال « ألكساندر

دوماس » و « ألفريد درى ڤيني » و « ألفريد دى موسيه » و « لامارتين » و « سانت بيڤ » و « ميشليه » وغيرهم ، وعلى رأسهم ڤيكتور هوجو ، إلى الحفلات الكبيرة التى أقامها بمناسبة افتتاح قصر ڤرساى . فلما حضر هوجو قدمه الملك إلى دوقة أورليان ، وهى الأميرة الشابة « إيلين دى مكلمبورج » زوجة ابنه دوق أورليان . وكانت شغوفة بالأدب إلى حد كبير ، شغفاً ورثته عن جدها الملك « أوجست دى ساكس ويمار » الذى اشتهر بحبه للأدب وبمناصرته للأدباء حتى إن حاشيته كانت تضم أعظم أدباء ألمانيا وشعرائها ، وكان صديقاً لـ « جوتة » لـ « شيلر » . وكانت الأميرة تحب فرنسا حبًّا يعادل حبها وطنها ويزيد ، فلما خطبت لولى عهد فرنسا حاول بعض المقرّبين إليها أن يحملوها على رفضه بحجة أن ملكات فرنسا تاعسات فقالت : «لأن أعيش سنة واحدة دوقة أورليان بفرنسا أحب إلى من أن أقضى حياتى هنا أنظر من نوافذ القصر إلى الداخلين الخارجين » . وكانت الأميرة تجيد الفرنسية وتتبع منذ صباها الحركة الأدبية الفرنسية لا سيما شعر هوجو وفلسفة « ڤيكتور كوزان » ، وكانت ترغب فى التعرف إليهما ، حتى إنها قالت لهوجو حينما قدّمه الملك إليها : « إنى سعيدة بمعرفتك ، فقد كنت

أرغب أشد الرغبة أن أتعرف باثنين : بلك بالمسيو كوزان . وقد تحدثت كثيراً عنك مع جوته . وقرأت جميع مؤلفاتك ، وحفظت كثيراً من أشعارك ، ويمكنك أن تمتحنى ! قد أحببت كثيراً تلك القصيدة من مجموعة « أغانى الغسق » التى مطلعها :

« " كانت كنيسة متواضعة ذات قوس منخفض
تلك الكنيسة التى دخلناها ، "
وقد زرت كنيستك بصفة خاصة . »

وبعد بضعة أيام ، حين نشر هوجو مجموعة « المناجاة القلبية » ، بعث إلى الدوق والدوقة بنسخة منها ممهورة بتوقيعه . فأرسلا إليه ، تقديراً لفنه ، لوحة زيتية للرسام « سانت إيڤر » تمثل « تتويج جثة إنييس دى كاسترو » ، وقد نالت هذه اللوحة كل نجاح فى معرض التصوير عام ١٨٣٧ ، وكان هذا منهما مجاملة سامية إن دلت على شىء فإنما تدل على شدة إعجاب الدوقة بهوجو . وأخذ الشاعر من جهته يعجب بها ، وأراد أن يشعرها بشكره لها وعظم تقديره فاختار مسرحية « روى بلاس » لتمثل أمامها ؛ وكان بطل هذه الرواية رجلاً فقيراً معدماً ، إلا أنه فذّ بعبقريته النادرة ، قد شجعه إعجاب الملكة

به فجالد وثابر وارتقى إلى أن أصبح رئيساً للوزارة ، فخدم الشعب بما قام به من إصلاح وتجديد مع أمانة وإخلاص .

وقد خدمه إعجاب الدوقة به ، وتودده لولى العهد ، وتقربه من الملك نفسه أجل الخدمات ؛ ولا شك أن أعظم مساعدة نالها منهم هى نجاحه فى دخول الأكاديميه ، بعد أن أباها عليه أعضاؤها ثلاث مرات ، وكلهم من الرجعيين الذين نالوا على يديه من الهزؤ والسخرية ما نالوا ، وكانوا لا ينفكون يناوثونه ويجاهرونه بالعداء ؛ ولكنهم لم يجرأوا هذه المرة أن يرفضوا طلبه ، بعد ما علموا من حظوته لدى الأسرة المالكة وخوفهم من سخطها عليهم . وقد حضرت الدوقة والدوق حفلة قبول هوجو بالأكاديميه تقديراً له ، واستمعوا إلى الخطاب الذى ألقاه ، وقد كان أقرب إلى السياسة منه إلى الناحية الأدبية ، كما بينا ذلك من قبل.

ظلت الدوقة على إعجابها بهوجو ، وظل هوجو مقدراً لها هذا الإعجاب ، باقياً على إخلاصه ووفائه لها ، رغم ما حدث من الانقلابات السياسية ، وما أعقبها من نفيه وكرهه لجميع الأسر المالكة .

موت ليوبولدين فى « فيلكييه »

أقحم هوجو نفسه فى غمرة السياسة ونال فى المرحلة الأولى منها الفوز بعضوية الأكادمية والتقرب إلى الأسرة المالكة ، وقد كان حرياً به أن يخطو قدماً نحو أسمى المراتب السياسية وعنده ذلك النشاط الجم وتلك العبقرية النادرة ، وخلفه الأسرة المالكة ومنها الدوقة تساعده وتشد أزره . ولكن موت ابنته وحزنه الشديد عليها قعدا به عن كل نشاط حقبة من الزمن .

كان قد سافر وچوليت فى أغسطس عام ١٨٤٣ إلى إسبانيا فى رحلة استغرقت ثلاثة أسابيع ، مرّ فيها بتلك المناطق التى عرفها طفلاً ، فأحيت رؤيتها فى مخيلته ذكريات عديدة بقيت فى ذهنه مدى الحياة كنزاً من المعانى لا ينضب . وأخذ طريق العودة فى أوائل سبتمبر ، فجعل يتوقف فيما يروقه من المدن ، حتى إذا وصل إلى « روشفور » فى اليوم الثامن عقد النية على أن يقضى فى زيارتها أياماً يشاهد فيها السجن والميناء ومبنى السفن . وبينما هو جالس فى إحدى مقاهيها يتصفح جريدة إذ وقع بصره على خبر وفاة ابنته الكبرى ليوپولدين غرقاً ، ولم يكن

قد مضى على زواجها من « شارل ڤاكرى » سبعة أشهر . رأى الخبر منشوراً فى صدر الصحيفة كما يأتى :

« خرج يوم ٤ سبتمبر شارل ڤاكرى وزوجته ليوپولدين فى نزهة على نهر السين ، وبينما كانا فى وسط النهر هبت على زورقهما زوبعة شديدة قلبته رأساً على عقب . فنجا شارل وظهر فوق سطح الماء وحاول ست مرات أن ينقذ زوجته ويخرجها من تحت الزورق ، إلا أنها كانت متشبثة بألواحه وهى فى غيبوبة ، فلم يتمكن من إنقاذها وبقى على هذه الحال حتى فقد قواه ، فغرقا معاً » .

قرأ الشاعر هذا الخبر فطار صوابه وعصف به الحزن ، فخارت قواه حتى إنه لم يستطع الوقوف على قدميه وهوى على مقعده ، شاحب الوجه ، مذهولاً ، والدموع تنهمر من عينيه . ولما عاد إليه رشده قرر مواصلة السفر فوراً إلى باريس . فكان سفراً كئيباً ، تتراءى له فيه طول الوقت صورة ابنته فى طفولتها وصباها وشبابها حتى زواجها . فها هى ذى معه فى سفره إلى « تور » تملأ الدنيا صخباً وحبوراً ، وها هى ذى أنس السفر إلى سويسرا ، وبهجة الدار فى « نوتردام دى شان » حيث كانت تتعلم القراءة على عجوز اختارها لها هو بنفسه . ثم يراها وقد

شبت وترعرعت وأخذت تواظب على حضور الصلاة فى الكنيسة المجاورة ، حتّى وافت حفلة زفافها وقد ظهرت بحلتها البيضاء أمام الهيكل متأبطة ذراع عروسها . كان يتصورها فى جميع هذه المشاهد ثم يتصور أنه فقدها إلى الأبد ، فكان الألم يحزّ فى نفسه والحزن يغشاه حتّى ليكاد يفقد شعوره وعقله . أتقضى وهى فى ريعان شبابها ولما يمض على زواجها سبعة أشهر ؟ أخذ يفكر فيها ويفكر فى أخيه « أوچين » كيف فقد عقله من قبل ومات ، وأخذ يفكر فى نفسه متسائلاً : أهو بكامل قواه العقلية أم تراه قد جن أو أوشك ، وقد كتب عن نفسه : « لقد كنت مختل الشعور فى اللحظة الأولى » .

شاركت فرنسا جمعاء ڤيكتور هوجو فى حزنه ، وفى طليعتها الأسرة المالكة ودوقة أورليان ، التى كانت قد فجعت منذ عام بزوجها الدوق . أما مدام هوجو فلم يكن حزنها بأقل من حزن زوجها فقد هدّتها الصدمة هدًّا وانفغر فى قلبها جرح لم يندمل مدى حياتها .

دفنت ليوپولدين فى مدفن « ڤيلكييه » فى تابوت واحد مع زوجها شارل ڤاكرى ، وأصبح المدفن والمقبرة أعزّ مكان وأقدسه عند هوجو وزوجته ، يحجان إليه بانتظام

طوال حياتهما . وكان الشاعر يضع فوق قبر ابنته كلما زاره طاقة من الزهر وأخرى من الشعر .

ولما مضى عام على وفاة ليوپولدين ، وبدأت وطأة الحزن تخف ، أخذ صوت الشاعر يعود رويداً رويداً إلى الحياة ، يتمتم بألفاظ الخضوع والابتهال ، ونظم قصيدة « ڤيلكييه » وهى أسمى قصيدة أملتها الآلام العميقة على امرئ رضخ لإرادة الله واعترف بعنايته :

« أتقدم إليك يا رب أيها الآب الواجب الوجود ؛
أقدّم لك وأنا هادئ
حطام هذا القلب الذى هشمته
وهو طافح بمجدك ؛
أتقدم إليك يا رب معترفاً بأنك
صالح ورءوف ورحيم وحنون أيها الإله الحى !

أقر بأنك وحدك تعرف ما أنت فاعل
وأن المرء ليس إلا ريشة فى مهب الريح ؛
أقر بأن القبر الذى يغلق على الأموات
يفتح السماء ؛

وأن ما نظنه فى هذه الدنيا النهاية
إن هو إلاّ البداية ؛

. . . .

لسنا نرى فى هذه الحياة إلاّ جانباً من الأشياء ؛
أما الجانب الآخر فهو غائص فى ليل الأسرار المخيف .
يحمل المرء النير وهو لا يعلم الأسباب .
وكل ما يراه قصير الأجل وباطل وزائل .

. . . .

اللهم إنى أشهد أن الإنسان
إذا شكا هذى ،
كففتُ عن اللوم وكففت عن التجديف
ولكن دعنى أبكى !

. . . .

اللهم أنت تعلم أنّا لا غنى لنا عن بنينا ؛

. . . .

وأننا نذوب ألماً وحسرة إذ نراهم يرحلون . »

ثم نظم بعد ذلك قصائد عديدة فى رثاء ابنته جمعت كلها فى مجموعة « التأملات » وكانت لوعته فى كل منها بالغة جدًّا .

حياة هوجو السياسية والاجتماعية

(الفترة الثانية)

مرّ عام ١٨٤٣ على هوجو بآلامه وحسراته وبدأ عام ١٨٤٤ ، فعاد الشاعر فيه إلى العمل وأخذ يذهب كل مساء تقريباً إلى القصر ليشاطر الأدباء مجلسهم فى حضرة الملك لويس فيليب ، وكان أحياناً يطول جلوسه وحده مع الملك فى محادثات ودّية إلى ساعة متأخرة من الليل .

انتخب هوجو رئيساً للأكادمية وكان عليه أن يبت فى قبول الأعضاء الجدد وأن يلقى خطاب الترحيب . وفى عهد رياسته تقدم لعضوية الأكادمية الأديب الناقد المسرحى « سان مارك چيراردان » فقبلت عضويته ، ثم سانت بيف صديقه بالأمس ، فوافق هوجو على ترشيحه ؛ وكانت موافقته هذه رغم ما لاقاه منه مفخرة له ودليلاً على سمو أخلاقه ونبالة نفسه . إذ أن العلاقات بينهما كانت قد قطعت منذ أمد بعيد ولم يبدُ من سانت بيف أية محاولة لوصلها ، فقد غرقت ابنة هوجو فلم يعزّه بكلمة مع أن لامارتين كتب له يقول : « حاول أن تدخل

عبر هذا الجرح العريض » . ولم يكفه ذلك بل برهن على صغر نفسه وقلة ذوقه بأن نشر بعد قليل من وفاة ليوپولدين مجموعة شعرية تشتمل على قصائد عاطفية يروى فيها حبه لأديل حشا أكثرها بالأكاذيب . فكان لنشرها فى نفس مدام هوجو وزوجها ، وهما فى أشد حالات الحزن ، أسوأ وقع وأمرّه ، إذ أخذت ألسنة الناس تلوك عرضها ولما ينسوا وفاة ابنتها . ومع كل هذا كان هوجو شهماً عند ما جاءه سانت بيڤ يرشح نفسه للعضوية ، فقابله مقابلة تليق بأى عضو فى الأكادمية ، وقد كان بوسعه أن يرفض قبوله ولكنه لم يفعل رغم موقف سانت بيڤ الأخير منه . ولما ألقى خطاب الترحيب به أثنى عليه ثناء كثيراً .

وعُيّن هوجو عضواً فى المجلس النيابى الفرنسى فى ١٣ أبريل سنة ١٨٤٥ لما كان بينه وبين الملك من العلاقات الوطيدة . فكان هذا التعيين خطوة كبيرة فى سبيل ارتقائه إلى أسمى الوظائف السياسية .

وظل نائباً حتى ثورة ١٨٤٨ ، وقد خطب فى المجلس ست مرات كان يطالب فى كل مرة بإبطال قوانين النفى والسماح للويس بونابرت ابن أخى الإمبراطور نابليون بالعودة إلى الوطن . وكانت خطبه جميعها مركزة التفكير متقنة الإعداد ،

محكمة الحلقات ، ذات أسلوب قوى وخيال بديع ، تفتن السامعين وتأخذ بألبابهم ، ولكنها لم تحملهم على الاقتناع بمطالبه ، إذ أن هوجو كان شاعراً خيالياً أكثر منه خطيباً نيابياً ، فكانت تنقصه سرعة الرد ، والبداهة السياسية ، وقوة إدراك نوايا المعارضين .

حدث لهوجو عقب انتخابه عضواً فى المجلس النيابى حادث أوشك أن يلبسه ثوب الخزى والعار. فقد تعرّف بالرّسام « بيار » وزوجته الجميلة ، فدعته يوماً إلى حضور حفلة تنكرية راقصة فى حديقة دارها . فلبى الدعوة واشترك بكل جوانحه فيها ، ورقص مع ربة الدار التى استهوت نفسه كثيراً وشعر نحوها بميل شديد . ووصف تلك الحفلة فى قصيدته الجميلة « حفلة عند تريزا » وهى فى مجموعة « التأملات » ، وقد ختمها بهذه الأبيات :

« طال الليل ، وصمت كل شىء ، وأطفئت المشاعل ،
وأخذت الينابيع تهدر فى الغابات السود ،
وأخذ البلبل المختبئ فى عشه الخفى ،
يغرّد كأنه شاعر أو عاشق .
فتشتت الجمع تحت الأشجار الكثيفة ؛

وجرّت المجنوناتُ ذوى العقول ضاحكات ؛
وانسلّت الحبيبة فى الظلام مع الحبيب ؛
واعتراهم اضطراب خفيف كما يحدث فى الأحلام ،
فكانوا يشعرون رويداً بضوء القمر الأزرق ؛
الذى يفيض على الأفق — يمتزج بنفوسهم
وبمناجاتهم الخفية وبنظراتهم الملتهبة
وبقلوبهم وحواسهم ورشدهم التائه . »

ظل هوجو عقب هذه الحفلة دائم الاتصال بمدام بيار ، فبادلته هى أيضاً حبًّا بحب ، وتطوّرت بينهما العلاقات إلى أن أفضى بهما الأمر إلى التلاقى سرًّا فى منزل بشارع « سان روك » ، وأخذا يترددان عليه . فعرف زوجها تلك العلاقة المريبة بينهما ، فراح يترقبهما حتى فاجأهما ذات ليلة ومعه وكيل الشرطة ، واقتحم باب المنزل بينما كانا فى نشوة غرامهما . فقبض وكيل الشرطة على المرأة وأودعها سجن « سان لازار » ، ولكنه لم ينل من هوجو شيئاً لتمتعه بالحصانة النيابية . فصمم الزوج أن يرفع الأمر إلى المجلس النيابى ليحاكمه ؛ فلم يرض الملك بذلك ، واستدعى الرسام وابتاع منه لوحة من ماله الخاص وطلب إليه التنازل عن حقه قبل هوجو ، فأذعن الرسام طوعاً لرغبة مليكه .

أما مدام بيار فبعد أن قضت مدة سجنها وأفرج عنها ، طلبت الطلاق من زوجها وظلت خليلة لهوجو مدة ثلاث سنوات ، بالاشتراك مع چوليت دروويه ، التى لم تكن تعلم بهذا . إلا أن الغيرة أخذت تأكل قلب مدام بيار. وزين لها شيطان غرامها أن تستأثر بهوجو وحدها ، فأرسلت الخطابات التى كان يكتبها لها إلى چوليت ، وأفهمتها موقفه منها ، وطلبت إليها أن تبتعد عنه وتفسح لها المجال . فثارت چوليت على هوجو وخيرته بينها وبين عشيقته الثانية ، فلم يتردد الشاعر فى ذلك واختارها هى ، وقطع كل علاقاته بمدام بيار .

ولم تمض عدة أشهر حتى طوى هذا الحادث وامحت ذكراه . وقامت على أنقاضه إشاعة أخرى ملأت الأندية وجميع الأوساط الباريسية ، وهى أن الأميرة هيلانة (دوقة أورليان) ، وكان من المتوقع أن تتوج ملكة على فرنسا ، قد وضعت خطة لسياستها ، وأنها قد ألفت وزارتها المستقبلة واختارت جميع وزرائها من بين الكتاب والشعراء على النحو الآتى :

ڤيكتور هوجو	للرياسة ووزارة الحربية
تيوفيل جوتييه	لوزارة الخارجية
ألفريد دى موسيه	لوزارة المالية

ألفونس دى لامارتين	لوزارة البحرية
جرانييه دى كاسانياك	لوزارة العدل
ليون فوشيه	لوزارة الداخلية

ولكن حلمها وإن لم يتحقق بأكمله ، وذلك بعد سقوط الملكية عام ١٨٤٨ وقيام الثورة ، إلا أنه عين لامارتين رئيساً للحكومة المؤقتة وليون فوشيه وزيراً للأشغال . فتم بذلك ما أرادته الأميرة لهذين الأديبين عن طريق غيرها ، ولم يتحقق ما كانت تريده لنفسها ولهوجو وموسيه وجوتييه .

ثورة ١٨٤٨ – هوجو عضو مجلس النواب

اندلعت نيران الثورة فى فرنسا فى فبراير سنة ١٨٤٨ ، وتنازل الملك لويس فيليب عن العرش مكرهاً . فحاول هوجو إحباط هذه الحركة الشعبية ، وخطب فى الشعب من شرفة داره مرّة وفى ميدان « الباستيل » مرة أخرى ، داعياً إلى إبقاء الملكية وتنصيب الأميرة هيلانة وصية على العرش . فلم يجد آذاناً صاغية ولم يستطع التأثير فى الشعب . وزالت عقب ثورة فجائية أهدأ حكومة عرفتها فرنسا .

أعلنت الجمهورية مرة ثانية وانتخب لامارتين رئيساً للحكومة المؤقتة التى شكلت لإجراء الانتخابات ، ومنح مرسوم ٥ مارس سنة ١٨٤٨ حق الانتخاب لجميع الفرنسيين . فانقلب هوجو جمهوريًّا ورشح نفسه لعضوية مجلس النواب فى أبريل سنة ١٨٤٨ ، ولكنه سقط ؛ فعاد ورشح نفسه فى الانتخابات التكميلية فى يونية سنة ١٨٤٨ ، ففاز فى هذه المرة ، وكان أحد الأربعة والثلاثين عضواً الذين انتخبوا عن دائرة باريس ، ومنهم لويس بونابرت ابن أخى الإمبراطور نابليون ، وكان قد عاد

إلى فرنسا بعد سقوط الملكية .

وزاد نشاط هوجو السياسى مدة نيابته هذه ــ من ١٨٤٨ إلى ديسمبر ١٨٥٢ ــ وتقلّبه مع الأحزاب ، فلم يكن لسياسته ولخطبه وأعماله أى طابع خاص يميزه أو يحدد من موقفه ؛ فهو ينتمى إلى حزب النظام ويتّجه بقلبه إلى الاشتراكية الحكومية . ورغم أنه مع الأغلبية فكثيراً ما كان ينسلخ منها ليصوت ضدها مع الحزب الديمقراطى . فطالب مع اليسار بإبطال عقوبة الإعدام ورفض الدستور بأجمعه ، وأيّد مع اليمين الأغلبية ، وصوّت معها مطالباً بإبطال المعامل القومية وإلغاء الضريبة العقارية والضريبة التصاعدية ورسم الإعفاء من الخدمة العسكرية والاستفتاء الشعبى ، وفى ذلك الوقت كان قد عين عمدة لدائرته بباريس .

ولم يكتف بنشاطه داخل المجلس بل أصدر فى ١١ أبريل سنة ١٨٤٨ جريدة أسماها « الحادث » (L'Evénement) بمعاونة ولده « شارل » وأصحابه « أوجست ڤاكرى » و « پول موريس » ، ليدافع فيها عن سياسته وليتخذ منها أداة لترويج دعوته وليمهد لانتخابه رئيساً للجمهورية .

وكان العمال قد نقموا منه لموقفه العدائى منهم حين النظر

فى قانون المعامل القومية فى المجلس ، فثاروا ضده وهاجموا منزله وأوشكوا أن يحرقوه . وبعد أن خمدت ثورتهم رأى أن ينتقل إلى مسكن آخر فى شارع « لاتور دوفرنى » . وبينما هو منهمك فى إعداد منزله الجديد إذ بزائر لم يكن ينتظره ، ذى عينين رماديتين تنمان عن ميل صاحبهما إلى الأحلام والأوهام ، زائر سوف يكلل رأسه تاج الإمبراطورية الفرنسية ، جاء يطلب مقابلته فى وقت لم يكن فيه هوجو مستعداً للقاء أحد ، ولم يكن هذا الزائر سوى لويس نابليون بونابرت . دهش هوجو من هذه الزيارة المفاجئة ، ولم يكن لديه مقعد واحد ليجلس عليه ضيفه الكريم ، وكان أثاثه لا يزال فى الصناديق المبعثرة فى ردهة البيت ، فلم يجد بداً من أن يجلسه على أحدها ، وجلس بجانبه يستمع إليه .

كان لويس بونابرت قد مضى طفولته وشبابه خارج فرنسا بسويسرا ، وحاول فى الفتنة التى اندلعت عام ١٨٣٦ أن يحمل الشعب على الاعتراف به إمبراطوراً لفرنسا ، فلم يفلح وقبض عليه ونفى إلى أمريكا . ففر منها وعاد إلى سويسرا ومكث فيها يرقب سير الحوادث فى فرنسا حتى عام ١٨٤٨ . وها هو ذا الآن فى حجرة خالية إلا من الصناديق الخشبية ، يجلس بجوار النائب هوجو وهو يعرف شعوره نحو الإمبراطورية

الأولى ، وقصائده التى نظمها فى عمه نابليون ، ومطالبته أيضاً ، وهو عضو فى المجلس النيابى السابق ، بالعفو عنه (أى عن لويس نابليون) حين كان منفيًّا فى أمريكا والسماح له بالعودة إلى الوطن . يعرف كل ذلك عن هوجو ، فأتى إليه يعرض عليه أغراضه ويكشف له عن نواياه وينشد مساعدته وتعضيده له لانتخابه رئيساً للجمهورية ، قائلا إنه لا يريد الحكم ليعيد عهد نابليون الأول بحروبه وضحاياه ، إنما يريده ليوطد لفرنسا دعائم السلم ، السلم الدائم . فوعده هوجو بمساعدته ، وقام وبعض النواب بمؤازرته إلى أن تمّ له الفوز وانتخب رئيساً للجمهورية . وكانت هذه الزيارة أولى اتصالات هوجو بلويس بونابرت ومعرفته به . وسوف نرى ما سينجم عن هذه الاتصالات من نتائج فى غاية من الأهمية بالنسبة لهوجو . وكثيراً ما يكشف لنا التاريخ عن اتصالات كهذه لها عذوبتها وخطورتها .

وقد كان هوجو يأمل فى مكافأة سخية من لويس بونابرت كأن يقلده بعد هذا إحدى الوزارات ، ولكن خاب ظنه فقد تجاهله رئيس الجمهورية عند ما ألّف الوزارة الجديدة . وكان لتجاهله هذا رد فعل عنيف فى نفس الشاعر ، وبدا

بينهما نوع من النفور ، زاده على مرّ الأيام ما كان يبديه رئيس الجمهورية من رغبة فى إرجاع الحكم الإمبراطورى ، مناقضاً وعده لهوجو الذى كان يزداد ميلا إلى الحرية والمساواة .

وزادت جهود هوجو فى مجلس النواب مدّة الثلاث السنوات التى قضاها عضواً فى هذه الهيئة ، وأبدى نشاطاً كبيراً يفوق ما أظهره فى المجلس النيابى السابق فى عهد لويس فيليب ، حتّى أصبح رئيساً لحزب اليسار الديمقراطى الاشتراكى وخطيبه المصقع فى المجلس ؛ فخطب مرات عديدة فى نواحٍ شتّى وفى مواضيع لها أهميتها كموضوع الإسعاف العمومى (٩ يوليه سنة ١٨٤٩) ، ومسألة التدخل الفرنسى فى روما فى مؤتمر الصلح (أغسطس سنة ١٨٤٩) ، ومشاكل التعليم (٥ يناير سنة ١٨٥٠) ؛ والإصلاح الانتخابى (٢٠ مايو سنة ١٨٥٠) ، والضمان والتمغة وإلغاء قانون النفى مع السجن . وكانت خطبه حادة ، شديدة اللهجة ، فى بلاغة لاذعة أثارت الضجة والمنازعات العنيفة ، وكان أروعها تلك التى ألقاها فى إلغاء قانون النفى مع السجن ، إذ أنها كانت مملوءة بأبلغ العبارات وأسمى مراتب الشعور بالعدالة والتسامح . وقد قامت بينه وبين زملائه القدماء من أعضاء المجلس النيابى السابق مبارزات فى الخطابة ، فكانوا يهاجمونه

بشدّة ويتهمونه بتقلبه وتحوّله من الملكية إلى الجمهورية ثم إلى الاشتراكية ، وكثيراً ما كانوا يقاطعونه حين يتكلم مرددين فقرات من أشعاره تناقض ما يقول .

انقلاب ٢ ديسمبر سنة ١٨٥١ ونفى هوجو

كانت صلة هوجو برئيس الجمهورية تزداد تصدعاً واضطراباً . فالأول ناقم من الثانى لحرمانه منصب وزير كما كان يطمع فيه ، والثانى يسعى إلى أن يصير إمبراطوراً ويرى فى الأول عدواً له ، ومن هنا ساءت العلاقات بينهما . ومما زادها سوءاً أن عمل هوجو على مقاومة الرئيس فى مشروعه بكل ما أوتى من عزيمة وبما لديه من فصاحة داخل المجلس وخارجه ، مهاجماً فكرة إعادة الإمبراطورية ، متمسكاً بالجمهورية ، حتى إنه كثيراً ما كان يهاجم لويس بونابرت فى شخصه ، ولم يكن يخشى أن يهجوه هجاء مراً أمام المجلس أو يهزأ به ، ويلقبه بالهارب وأحياناً « بنابليون الصغير » ، أى الوضيع ، و « بأوجستول » أى « أوجست » الصغير ، نسبة إلى أوجست إمبراطور الرومان . وكان يقضى الساعات الطوال فى الخطاب الواحد ، بل كثيراً ما احتل وحده المنبر جلسات متتالية ، محاولاً بكل قواه إثارة الرأى العام وإثارة المجلس بصفة خاصة ضد رئيس الجمهورية وضد آرائه ومشاريعه . حتى لقد كاد مرة يسقط مغشياً

عليه فى إحدى خطبه — فى نوفمبر سنة ١٨٥١ — من شدة التعب إذ استمر يتكلم زهاء خمس ساعات متتاليات .

أما لويس بونابرت فكان قد أعدّ العدة لقلب نظام الحكم الجمهورى والرجوع بفرنسا إلى الحكم الإمبراطورى ، وذلك بمساعدة أعوانه من أعضاء المجلس ومن خارجه . وتمّ الانقلاب فى ٢ ديسمبر سنة ١٨٥١ ، وأصبحت فرنسا إمبراطورية ، ووضع اسم هوجو فى أول قائمة المحكوم عليهم بالنفى . فلم ييأس هوجو وقرر المقاومة والنضال ، ومعه نفر من أعضاء المجلس كانوا يناصرونه ؛ فقاموا بحملة شديدة محاولين إحداث ثورة لإعادة الجمهورية ، وألفوا من بينهم جمعية فى باريس تكفلت بلصق إعلانات ضخمة على الجدران ، تحث على عدم الاعتراف بحكومة لويس بونابرت وبحقوقه ، بل عدته خائناً خارجاً على القانون . أما الإمبراطور فقد أصدر منشوراً عدّ فيه هوجو ثائراً ، ووضع ثمناً لرأسه ، وأمر بالقبض عليه وعلى جميع أعضاء لجنة المقاومة إذ كانوا قد نجحوا فى إثارة فريق من أهل باريس ، ونصبوا المتاريس فى بعض أحياء المدينة : فى « الحال » وفى شوارع « مونتر جوى » و « موكونسى » و « تكتون » وغيرها . ولما شعر هوجو بخطورة الموقف لم يجد بدّاً من ترك منزله ، إذ لم

يأمن على نفسه فيه ، وفضّل قضاء نهاره وليله بين المتاريس ، مجازفاً بحياته ، وفى بعض مخابئ أخرى متفرقة . وبالرغم من كل ما بذلته لجنة المقاومة لم تقوَ كما كانت تتوقع على النهوض بالثورة والقضاء على الإمبراطورية ، نظراً لشدة عزم الإمبراطور وحشده قواه لإخماد الثورة فى مهدها .

فلما رأى هوجو أن الحركة أوشكت على الفشل ، وأن المتاريس أخذت تسقط الواحد تلو الآخر ، وعلم أنه مقضى عليه ، هرب من باريس والتجأ إلى بلجيكا فبلغ بروكسيل يوم ١٤ ديسمبر سنة ١٨٥١ ، واستأجر شقة بشارع « الميدان الكبير » ، تاركاً زوجته بباريس . فأخذت تبيع بالمزاد العلنى أثاث المنزل وجميع تحفه ومخلفاته الثمينة . أما هو فانكب على كتابة روايته التاريخية « قصة جريمة » ، وهى قصة الانقلاب الحكومى الذى قام به نابليون الثالث أى لويس بونابرت ، وهى قصة مسهبة معقدة ، لعب غضب الشاعر فيها دوراً هامًّا فجاءت بعيدة عن الصحة فى كثير من حوادثها ، كما ملأها بهجو الإمبراطور وسبّه ، ولم ينشرها إلا عام ١٨٧٧ ، أى بعد خمسة وعشرين عاماً من تأليفها . ثم كتب بعدها فى مايو سنة ١٨٥٢ هجاءه المرّ اللاذع « نابليون الصغير » الذى أحدث

ضجة فى بلجيكا .

وقد هاجر معه من فرنسا عدد كبير من الثوار والنواب الذين احتوت أسماءهم تلك القائمة السوداء ؛ فأخذوا بدورهم يحملون فى الصحف البلجيكية حملاتهم الشديدة اللاذعة على الإمبراطور وحكومته حتى استاء الشعب البلجيكى وحمل حكومته على أن تسن قانوناً يحاكم بموجبه من يتعمد السب فى رؤساء الدول الأجنبية . فلم ينتظر هوجو حتى يصدر هذا القانون ، بل غادر بلجيكا فى أول أغسطس سنة ١٨٥٣ إلى لندن ؛ فلم يرقه كثرة ضبابها ولا شدة ظلامها ، فغادرها إلى جزر بحر المانش واستقر « بجزيرة جرسى » القريبة من ساحل نورمانديا ، وقد كانت من قبل منفى لشاتوبريان مدة من الزمن .

هوجو فى جزيرة جرسى

أرسل الشاعر المنفى فى طلب زوجته وأولاده بعد أن استأجر فى هذه الجزيرة منزلاً يسمى « مارين تراس » أقام فيه ثلاث سنوات من مدة نفيه التى دامت تسع عشرة سنة .

لم يكد هوجو يستقر فى جرسى حتى لحقت به صديقته جوليت درورويه واتخذت لها مسكناً بالقرب منه ، فكان هوجو يتردد إليه كل مساء ، فيكتب فى غرفتها أو يجتمع فيه بباقى المهاجرين الفرنسيين .

وبعد مدة ألِف الحياة فى تلك الجزيرة الصغيرة ، ففارقه بعض وجومه ، وأخذ رويداً رويداً يستمتع بمناظرها . وكثيراً ما كان يخرج بصحبة جوليت للتنزه فى الحقول أو على شاطئ المحيط ، فيملأ عينيه من منظره الرهيب ، فتنشط أعصابه وأفكاره إلى العمل ، وكأن أمواج المحيط الهائجة تشاركه فى غضبه وتوحى إليه بأشعاره العنيفة الصاخبة ضد المغتصب الذى تسبب فى نفيه .

وفى هذه الجزيزة نظم شاعرنا مجموعة قصائده الهجائية

« العقوبات » ونشرها فى أواخر أكتوبر سنة ١٨٥٣ . وهذه القصائد كلها أتون غضب ثائر على المغتصب الذى يحكم فرنسا ، وقد ملأها ذمًّا وهجاء لاذعاً لم يسمع له مثيل . فمن السباب إلى اللعن ومن التهكم إلى السخرية وكأن كلَّ بيت من السبعة الآلاف التى تتكون منها المجموعة سوط يجلد به ظهر المغتصب. ولم يكتف هوجو بهجو الإمبراطور وحده بل هجا أعوانه ومن ساعدوه على قلب الحكم ، فأخذ كل نصيبه من سياط هوجو ، ومنهم « مورنى » و « ڤايان » و « دوبين » و « سانت أرنو » وغيرهم .

وغالى هوجو فى هجائه وسبابه حتى أوشك أن يشوّه مجموعته لولا قوة إلهامه وصدق عاطفته وشدة حماسته وبلاغة أسلوبه وجمال شعره . فمن قصيدته الأولى « الظلام » ، التى يسرد فيها الانقلاب الذى أحدثه « المجرم » ، إلى آخر قصائده فى المجموعة « النور » ، التى تملؤها الثقة والإيمان والأمل بالمستقبل ، لم يخل بيت واحد من تلك اللهجة العنيفة مع تنوع الأساليب .

أما أجمل قصيدة فى المجموعة وأروعها وأطولها فهى بلا ريب قصيدة « الاستغفار » (L'Expiation) ، وهى أبدع قصيدة كتبها عن نابليون الأول ، نقم فيها منه قلبه الحكم الجمهورى بعد الثورة ، وإنشاءه الإمبراطورية ، وكيف عوقب

على جريمته . ولكن أكانت عقوبته انسحابه من روسيا ، أم كانت انهزامه في واترلو ، أم نفيه إلى جزيرة القديسة هيلانة ؟ كلا . إن عقوبتة كانت في الانقلاب الأخير . فلقد صحا في قبره بالأنفاليد ، ورأى همجياً يسير على رأس عصابة من الرعاع ويلوث اسمه وشرفه ومجده ، ويسمى نابليون الثالث : هذه عقوبته . وهذا من أروع ما يجود به خيال شاعر عبقرى .

ومن أعظم قصائده حماسة وأبرعها لهجة تلك التى اختتم بها الباب السابع والأخير، وعنوانها «الكلمات الأخيرة»، وقد جاء فيها :

« وما دام يتلثلث فى الأرض ويسحق تحت فكيه
القسم والفضيلة وشرف التقوى ،
وهو نشوان وقد ألقى فى شناعته عاره على مجدنا ،
وما دمنا نشاهد تلك المساخر تحت قبة السماء ،

ولو نمت دناءة الشعب نمواً
أصبح يُعْبَد معه الخادع الممقوت ،
ولو قالت إنجلترا وأمريكا للمنفى :
ابتعد عنا فإننا خائفون !

فأنا لن أنحنى ! بل أقبلكما فى منفاى القاسى ،
دون أن أبثّ الشكوى ،
بقلب ملؤه الحزن وبعزيمة مشبعة باحتقار القطيع ،
يا أيها الوطن معبدى ، ويا أيتها الحرية علمى !

. . . .

وأرضى بالنفى المضنى وإن لم يكن له حد ولا نهاية
دون أن أحاول أن أعرف
هل خضع مَنْ كنا نعهد فيه العزم والشجاعة
أو هل ذهب كثير ممن كان يجب بقاؤهم .
فلو لم يبق سوى ألف فأنا فى جملتهم !
ولو بقى مائة لظللت أتحدى المغتصب ؛
ولو بقى عشرة لكنت العاشر ،
ولو لم يبق سوى فرد واحد لكنت أنا هذا الفرد . »

وقد حقق ذلك وتمسك بكلامه وأبى أن يتمتع بجميع مراسيم العفو التام التى أصدرها الإمبراطور ، ولم يعد إلى فرنسا إلاّ بعد سقوط نابليون الثالث ، أى فى سنة ١٨٧٠ .

ومن أعجب ما حدث لهوجو فى جرسى أن آمن بمناجاة

الأرواح وباستحضارها ، فانكبّ على هذا مدة طويلة كادت تودى فى النهاية بأعصابه . ففى إحدى زيارات مدام « دى چيراردان » لجرسى ، ثم لهوجو فى منزله ، دار النقاش حول هذا الموضوع ، وكانت مدام دى چيراردان شديدة الإيمان به . ولكن هوجو لم يقنع أول الأمر ، إلا أنه سمح أخيراً أن تقوم السيدة بإجراء تجربة أمامه . فأحضرت منضدة مستديرة وجلست إزاءها ، وبجوارها شارل وأديل هوجو ، ووضعوا أيديهم عليها وأخذوا يناجون روح ليوپولدين ابنة هوجو التى غرقت منذ أكثر من عشر سنوات. فتخلخلت المنضدة واهتزت ، وحضرت روح ليوپولدين تحدثهم بتفاصيل حادثتها التى قضت فيها نحبها . وكانت التفاصيل دقيقة بحيث إنها أبكتهم جميعاً ، ومن هنا آمن هوجو . وعلى يدى مدام دى چيراردان تعلم طريقة استحضار الأرواح ، فاستحضر كثيراً منها أمثال روح « ڤولتير » و « دانت » و « راسين » و « شكسبير » و « أفلاطون » و « إيشيل » و « أندرية شانييه » وأرواح الأسد والضفادع والمحيط وملاك النور وظلام القبر وغيرها . فكانت هذه الأرواح تتحدث بالشعر ؛ ومن عجب أن أشعارها كانت تشبه أشعار هوجو تماماً ، وأن نظرياتها الفلسفية هى نظرياته بعينها . ولم يكن

يدهش لزيارة كل هذه الأرواح له ؛ أليس هو الوحيد الذى يعرف أسرار الطبيعة ويدرك خفايا الكون كما يعتقد ؟

ومما يدهشنا أن هوجو استغرق فى عمله مؤمناً بصحته ، فى حين أن ذلك لم يكن فى الواقع إلا عملية نقل الأفكار وتبادلها .. فوسيطه كان ولده شارل ، وكان وسيطاً حساساً ، يتلقى أفكار والده بسهولة عظيمة ويعبر عنها تحت تأثيره شعراً ، فيراها الوالد مطابقة لما كان يتوقع ، وهذا ما خدعه ، ولا عجب فقد كانت أعصابه المضطربة بعد الإجهاد الأخير سبباً قويًا فى سرعة تصديقه وإيمانه بهذه العملية . وكان أثرها فيه وفى ولده سيئاً للغاية ، فتملكتهما الأوهام السمعية والنظرية كرؤية الأشباح ليلاً أو سماع طوافها وحديثها . وظهرت هذه الاضطرابات فى القصائد التى كتبها فى ذلك الوقت ونشرها فيما بعد فى مجموعة « التأملات » .

وفى غضون ذلك كان المنفيون المقيمون بالجزيرة قد أسسوا جريدة سياسية دعوها « الإنسان » (L'Homme) ، اشترك هوجو فى تحريرها بمقالاته وحملاته العدائية على الإمبراطور ، الذى أبرم معاهدة مع إنجلترا لم ترق فى عين هوجو . كما أن بعض زملائه هجوا ملكة إنجلترا نفسها لأنها استقبلت إمبراطور

فرنسا ، غير الشرعى فى نظرهم ، فى قصر « وندسور » ، وردت له الزيارة فى فرنسا ومنحته ثقتها . وكان الهجاء لذاعاً ، أثار اشمئزاز أهالى الجزيرة حتى أوشكوا أن يفتكوا بكاتبى المقالة وطردوهم فوراً من الجزيرة . فاحتج هوجو على ذلك . فكان نصيبه أن أمر بمغادرة الجزيرة فى مدى ثمانية أيام . فأبحر إلى جزيرة « جرنسى » فى ٣١ أكتوبر سنة ١٨٥٥ .

فى جزيرة جرنسى

لم يكن هوجو الذى نزل من السفينة بصحبة زوجته وأولاده وچوليت دروويه ذلك الرجل الأنيق الجميل الذى كان يحادث الملك لويس فيليب فى قصر « التويليرى » منذ ثمانى سنوات . فقد ذهب ما كان فيه من جمال وأناقة ، وحلّ محله ذلك الوجه الحليق المجعّد ، وتلك الجبهة العريضة المقطبة لما يساوره من الاضطراب النفسى الشديد ؛ فقلّما تمرّ على أطراف شفتيه ابتسامة مرّة تنمّ عن غضب لم يتلاشى ؛ إلاّ عينيه فإنهما لا تزالان برّاقتين ، تشعان ذكاء وتلمعان عزيمة وإرادة جبارة .

نزل هوجو إلى الجزيرة فى مدينة « سان بيير بورت » ، ولم يلبث أن استأجر شقة متواضعة ، مكث فيها سنة ، فنشر خلالها مجموعة قصائده الذائعة الصيت « التأملات » وقد تحدثنا عن بعض قصائدها عند ما تحدثنا عن وفاة ابنته غرقاً . وهذه المجموعة من أجمل مجموعاته الغنائية وأقواها شعوراً وإلهاماً . وهى جزءان تتخللهما القصائد التى نظمها

فى رثاء ابنته . وفى الجزء الأول ، وعنوانه « الماضى » ، ذكريات صباه وشبابه وغرامه ؛ وفى الجزء الثانى ، وعنوانه « الحاضر » ، قصائد فلسفية ونفسانية كتبها متأثراً بطرق استحضار الأرواح . أما القصائد الخاصة بابنته فقد أودعها كل مكنونات قلبه وحبّه لها وعظيم تأثّره وحزنه الشديد ، وأسماها باللغة اللاتينية « Pauca Maeae » أى « القليل الباقى لى » ، وصف فيها حياة ابنته من مهدها إلى لحدها ، ثم شرح ما أحسّ به من اللوعة على فقدها ، كما فى الأبيات الآتية :

« آه لقد كنت مختل الشعور فى اللحظة الأولى ،
واحسرتاه ! لقد بكيت ثلاثة أيام بكاء مرًّا .
أنتم يا أيها الذين انتزع الله منكم آمالكم العزيزة ،
أيها الآباء والأمهات الذين قاسيتم آلامى ،
أشعرتم بكل ما شعرت به ؟
لقد أردت أن أحطم رأسى على حجارة الطريق ؛
ثم ثرت ، وكان أحياناً هياجى فظيعاً ،
كنت أحدق بنظرى إلى هذا الشىء الفظيع
ولم أصدقه ، وقلت صائحاً : كلا !
— أيسمح الله بهذه الكوارث التى لا نجد لها اسماً

والتى تغرس اليأس فى القلوب ؟ —
وكل ذلك كان يبدو لى حلماً مفزعاً ،
وأنها لم تستطع أن تهجرنى كما فعلت ،
بل كنت أسمعها تضحك فى الغرفة المجاورة ،
وأنه من المحال أن تكون المنية قد أدركتها ،
وأنى سأراها تدخل من هذا الباب !

آه ! كم من مرّة قلت : الصمت! الصمت ! لقد تكلَّمت
أصغ ! ها هى ذى حركة يدها على المفتاح !
انتظر ، إنها قادمة ! دعنى أستمع !
إنها بلا ريب فى مكان ما بالمنزل . »

وبينما كان قلبه يتفتت ، كان عقله يحاول أن يفهم أسباب الحوادث ، و « لماذا يجب أن تفارقنا المخلوقات الفاتنة » ، وكيف تكون الحكمة الإلهية على تلك القسوة ؛ كما حاول إدراك أسرار الكون والأسباب التى تدبّره ، فكان يرتجف مما تصوره له مخيّلته من خفايا « فى جوف هذه السماء الجامدة الراقدة » . ويشعر أنه مخلوق ضعيف شريد وسط هذا الكون الرهيب ، وأنه ألعوبة صغيرة فى أيدى قوات الشر والخير التى تتنازع العالم .

فيشعر أحياناً بيأس عميق إذ يعتقد أن الإنسان مخلوق محكوم عليه بالألم ، وأن جهوده مهما عظمت لا فائدة منها ، فمن يوم خلقه الله لا بد له أن يقاوم ويجاهد ويتعذب ، إلى أن ينتهى أخيراً إلى « صمت الموت الواسع العميق » .

وأحياناً يثوب إلى رشده من هذه الخواطر الكئيبة ، فيقبل إرادة الله لكن دون خضوع ، ويكفّ عن التجديف ولكن دون أن يكف عن البكاء ، ويسجد لربّه ، مقدماً له «حطام قلبه المفتّت » ، دون أن يفهم إرادته ، فيحاول أن يعتقد أن الموت حسن يفتح أبواب السماء ، مقر السعادة والنور ، ويتصوّر أن للموتى « خلوداً مشرقاً سعيداً » ؛ إلاّ أنه لا يستطيع أن يتخلص من فكرة الأموات الراقدين فى قبورهم سجناء ، وينتفض لظلمة القبور حيث الأعزّاء جائعون باردون ، وحيث « يسمعون أصواتنا كأنهم فى حلم » .

هذا ما نجده فى الجزء الثانى من « التأملات » ، وهو يدلّنا دلالة واضحة على نفسيّة هوجو وعبقريته بعد غرق ابنته وبعد نفيه .

نالت هذه المجموعة نجاحاً عظيماً وشهرة لا مثيل لها ، وجاءته بربح جزيل يعدّ ثروة ، أتاحت له شراء منزل كبير فى

المدينة ، فى حى مرتفع يشرف على البحر ، وكان هذا المنزل يدعى « هوتفيل هوس » ، تحيط به حديقة صغيرة مكتظة بأشجار الكافور والبلوط والتين والأزهار المتنوعة . وقد تفنّن هوجو فى تأثيثه ، وجمع فيه كثيراً من التحف النادرة . فى الطبقة الأولى الأرضية غرفة واسعة ذات موقد عال جعلها غرفة الطعام وملأها خزائن منقوشة رسم هو نقوشها ، كما وضع فيها تحفة تثير الدهشة ، وهى كرسى صنعه بيده وزخرفه على الطرازين القوطى والبيزنطى ، ونقش على إحدى ذراعيه كلمة « چورج — ١٥٣٥ » يعنى قائد « الدوق رنيه الثانى دى لورين » الذى كان يعدّه شاعرنا جدّه الأكبر ، ونقش على الذراع الثانية اسم والده « چوزيف ليوبول سيچسير هوجو — ١٨٢٨ » ، ونقش على ظهر الكرسى ترساً فيه شعاره وهذه العبارة باللاتينية « أنا هوجو — أنا رماد ورفات — الغائبون حاضرون » . ثم وصل بين الذراعين بسلسلة من الحديد تمنع من الجلوس عليه وكان هوجو يقص على ذويه ومعارفه أنه ما صنع هذا الكرسى إلاّ لتجلس عليه أرواح أسلافه الغائبين ، ووصل به الحال أخيراً أن اعتقد هو نفسه أنها تتناوب الجلوس عليه . وكان يمنع أى شخص من الاقتراب منه حتى لا يدنّسه .

وجعل حجرتى النوم والاستقبال فى الدور الأول ، وكانت حجرة النوم مكسوة بخشب البلوط المنقوش ، وبها أعمدة حلزونية من الخشب نفسه ، وباب ضخم من صنع النقاشين الفلندريين القدماء ، ووضع فيها سرير كبير محاط بحواجز من الخشب ، وثريا كبيرة مكوّنة من أربعين سراجاً ؛ وسماها غرفة « غاريبالدى » ، وكانت أشبه بمتحف خشبى . أما غرفة الاستقبال فجعلها على الطراز اليابانى ، ووضع فيها كثيراً من المرائى ، وأربعة تماثيل ذهبية كبيرة تحمل روقاً مرتفعاً ، وكسا جدرانها وسقفها بالحرير اللامع الأزرق المذهّب . وكان يستقبل فيها ضيوفه كأنه ملك فى قصره .

أما فى الطبقة العليا فقد وضع مكتبه فى شرفة واسعة ، ذات نوافذ زجاجية ، تطل على البحر من كل الجهات . وفى هذه الشرفة المعروفة باسم « لوك أوْت » (Look-out) كتب هوجو أغلب قصائد الجزء الأول من « أساطير القرون » وقصته الشهيرة « البؤساء » والمجموعة الشعرية المسماة « أغانى الشوارع والغابات » وقصة « عمال البحار » وقصة « الرجل الضاحك » وقصة « ثلاثة وتسعين » وغير ذلك .

أما نظام حياته فى هذا المنزل . وهو أول منزل ملكه ،

فقد كان نظاماً عملياًّ محضاً ؛ إذ كان يستيقظ فى السادسة صباحاً ، وأحياناً قبل ذلك بساعتين ، فيستحم بالماء المعرض طول الليل للبرد القارس وللرياح الشمالية فى حوض فى أعلى المنزل ، فينعشه ذلك الحمام البارد وينبه أعصابه ويقوى عضلاته المتينة . ثم يقصد شرفته الزجاجية المرتفعة ، وكأنها منارة يشرف منها على الجزر البعيدة وعلى شاطىء فرنسا « المغرى » ، ويمضى فى الكتابة بعد أن يكون قد التهم خمس أو ست برتقالات بقشورها . وكان يكتب واقفاً أمام لوحة من الخشب مثبتة فى الحواجز الزجاجية . وبعد أن يقضى أربع ساعات فى العمل يقوم بتناول طعام الفطور ، ويستأنف عمله حتى موعد الغداء . وبعد حمام فى البحر يعود إلى عمله من جديد بقوة لم يعرف لها مثيل فى عالم الأدب فى كل الأجيال ، قوة لا تعرف الملل ولا الكلل ، ولا يوهنها برد الشتاء ولا حرّ الصيف .

أما چوليت ، وقد أعجزتها الهموم والأحزان والقلق والحب ، فهرمت قبل أوانها ، فكانت تسكن منزلاً قريباً من هوتڤيل هوس وتشرف عليه ، ومنه كانت تراقب حبيبها فى شرفته أمام لوحته ، أو تراه يغدو ويروح كأنه الإله الذى تعبده . وفى أوقات فراغها كانت تفلح أرض حديقتها وتجمع الورد وتقطّر

ماءه ليغسل هوجو به عينيه كل مساء ، أو تصنع له الفطائر تبعثها إليه فى هوتفيل هوس . وكانت تقابله بعد الفطور للتنزه معه قليلاً على الشاطئ ، ثم يعودان هو إلى عمله وهى إلى منزلها حيث تنسخ له الصفحات التى يكون قد كتبها فى الصباح ، وتنتظره إلى أن يعود إليها ومعه أولاده أحياناً ، وكثيراً ما جلس معهم على مائدتها لتناول الطعام .

وعلى هذا المنوال قضى هوجو زهاء خمسة عشر عاماً تخللتها الحوادث أليمها وسعيدها . فمن الحوادث الأليمة أن مرض الشاعر فى أغسطس سنة ١٨٥٨ بالتهاب جلدى وظهرت على جسده البثور ، مما دعاه إلى التخلى عن عمله ثلاثة أشهر . ومنها ما كان من ابنته « أديل » الجميلة التى أحبت ضابطاً إنجليزياً وآثرت الهرب معه إلى كندا فى سنة ١٨٦٣ على البقاء فى هذه الجزيرة الخالية من أسباب التسلية والرفاهية مما أثر فى صحتها فأذبلها وأهزلها ؛ وما كان من نذالة هذا الضابط وهجره إياها وتركها وحيدة فى هذه البلاد النائية ، مما أفقدها عقلها . فذهب عندها أخوها « فرنسوا » وأحضرها ، وعاشت التعسة فاقدة اللب ، كعمتها « أوچين » إلى أن ماتت بهذه الحال فى التسعين من عمرها تقريباً عام ١٩١٥ .

ومن هذه الحوادث المؤلمة مرض مدام هوجو وذهابها إلى بلجيكا حيث عاشت مع ابنها « شارل » ، الذى تزوّج هناك ، فلم تلبث أن فقدت بصرها وماتت بعد قليل بين زراعى زوجها الذى هرع لرؤيتها عام ١٨٦٨ .

أما عن الحوادث السعيدة فأهمها نشر مجموعاته الشعرية وروایاته وبعض أسفار أتيحت له إلى بلجيكا وهولندا وإنجلترا .

« أساطير القرون »

« وحينما أكتب وأنا أفكر فى شرفتى
أرى الأمواج تولد وتموت ثم تولد لتموت
وأرى الطيور البيض تسبح فى الهواء
والسفن تنشر أشرعتها للريح
كأنها عن بعد وجوه كبيرة
تتنزه على البحر . »

بهذه الأبيات وصف هوجو المنظر الذى كان يراه دائماً من شرفته الزجاجية فى هوتفيل هوس ، وكان خير ملهم له فى نظم قصائد « أساطير القرون » (La Légende des Siècles) وقد نشرت أول مجموعة منها — وهى ثلاث — عام ١٨٥٩ . وهذه المجموعات من أضخم وأفخم مجموعاته ، إذ أنها ليست بقصائد غنائية ، بل هى ملاحم تسرد سير الأبطال وبطولتهم ، قد بعث بها ما اندثر من عصور الإنسانية الأولى ، معتمداً على روايات التاريخ الخرافية والأحاديث والقصص . فهو يطوف

بالقارئ خلال العصور والدهور من بدء الخليقة إلى أيامنا هذه يصف الأرض فى العصور الأولى يوم خلقها الله ، مبتسمة سعيدة ، تخرج من أحشائها ما أودعها الله للبشر من أزهار وفاكهة . ثم ينتقل به إلى التاريخ المقدس من حوّاء إلى المسيح ، فيصف خلق المرأة الأولى وجمال بشرتها ورشاقتها ، وصوت الضمير الذى أنب قايين ، وجمال الليل الذى اتصل فيه بوعز وراعوت ، وبعث لعازر من الأموات . ثم ينتقل من خرافات الإغريق وقصص الآلهة والأبطال والملوك وقصور نينوى ، إلى تاريخ القرون الوسطى وسير الأبطال الذين طافوا حول العالم لإصلاح الأخلاق وعقاب المجرمين ، فيروى قصص رولان وشرلمان عائداً من حروبه ومغامراته . ثم يعرج على هذه البلاد التى رآها فى حداثته وزارها فى كبره مع محبوبته چوليت فيصف إسبانيا بجمالها العنيف فى تاريخها القديم أيام حروب رودريج والعرب ، وبروحانية أهلها فى عصر فيليب الثانى وفى عهد محاكم التفتيش ، إسبانيا بلاد الدين وبلاد الشهوة ، اللطيفة القاسية . ثم يتحدث عن الإسلام فى فجره الأول وموت النبى ورؤية عمر . ويسبح بخياله حول الشرق ، فيصور لنا السلطان مراد والأتراك ومحمد الثانى ، ومصر فى عهد المماليك ،

وإيطاليا فى العصور الوسطى تحت نير القياصرة الألمان ، ثم فى عصر النهضة والانبعاث . وينتقل بعد ذلك إلى العصور الحديثة والقرنين السادس عشر والسابع عشر ، فيتحدث عن الشعراء كما يتحدث عن الأبطال ، ويتحدث عن الثورة الفرنسية وعن الإمبراطور نابليون وعن فرنسا فى حالتها الحاضرة وبؤسها وشقاء أهلها . ثم ينتقل إلى المستقبل ويعبر عن آماله فى عالم أهنأ وأرقى من عالمه الحاضر ، تتمتع فيه الأمم بوحدة دائمة وسلام دائم مقيم . ويختم هذا الطواف بحديثه عن الآخرة وعن يوم الحساب وعن مصير كل إنسان .

هذا مجمل بسيط لهذه المجموعات الثلاث التى تربو على ثلاثين ألف بيت من الشعر ونيف وعن مائتين وخمسين قصيدة ، استطاع الشاعر فيها بقوته الخارقة ومخيلته الفذة أن يصور للقارئ حياة العصور والأجيال متتالية متسلسلة ، وكأنها كلها حقائق طبيعية ، رغم ما فيها من حوادث خارقة للعادة ونوادر عجيبة .

وفى هذه القصائد بجانب هذا التصوير الرائع وهذه القصص العظيمة ، ناحية فلسفية لا تخفى على القارئ ، وقد نوه عنها الشاعر فى مقدمة المجموعة الأولى ، وهى تقدم البشرية رويداً رويداً من أحط درجات التوحش والهمجية إلى أرقى درجات

الخير والسلام والمحبة ، أو على حد تعبيره : تدرّج البشرية من الظلام إلى النور . وقد أراد أن تكون هذه القصائد حكمة وعبرة وإرشاداً وإصلاحاً ، إذ كان يعتقد أن الشاعر إنما هو رائد للفكر البشرى وراع للشعوب ، يتلقى من السماء وحياً وإلهاماً . وقد اعتقد بممارسته مناجاة الأرواح ، كما أسلفنا ، أنها تحثه على عمله العظيم وتوحى إليه رسالته العليا . فكان يهب كل جزء بل كل ذرة من الكون روحاً ، كما كان يسمع ضمير هذا الكون بما احتواه من جماد وأحياء يناجيه بأسرار مفزعة ويسمو نحو الله ليستغرق فيه . فيشعر القارئ من قصيدة إلى أخرى ، خلال الأخطاء والجرائم ، بتسامى الروح العالمية نحو الخير والنور ويرى صراع النفس العنيد للتحرر من قيود المادة التى تثقلها وتسجنها ، ويتبين ، بين حماسة الشاعر المؤمن إيماناً راسخاً بالتقدم والرقى ، الانتصار النهائى للنور على الظلام وللخير على الشرّ .

« البؤساء »

لم تنقض ثلاثة أشهر على نشر الجزء الأول من « أساطير القرون » حتى نشر هوجو روايته الذائعة الصيت « البؤساء » ؛ وهى أول رواية نثرية كتبها بعد « نوتردام دى باريس » ؛ وهى تصوير دقيق فاجع لحالة البؤس الاجتماعى فى فرنسا فى القرن التاسع عشر .

كان قد ابتدأ يفكر فى تأليفها عام ١٨٢٣ ، ولم تكن سنه إذ ذاك أكثر من واحد وعشرين عاماً . وفى سنة ١٨٣٠ باحث أحد الناشرين فى موضوعها ، ولكن انشغاله بالمسرح وكتابة مجموعاته الشعرية حالا دون تحقيق هذه الفكرة . وعاد إليها عام ١٨٤٥ وكتب منها جزءاً كبيراً وكاد ينتهى منها لولا ثورة ١٨٤٨ التى أرغمته على التوقف عن إتمامها مدة طويلة ؛ إلى أن كان ربيع ١٨٦٠ ، وقد رأى أن نفيه سيطول ، فانكبّ على الكتابة من جديد ، ولكن بروح أخرى ، حيث إن أفكاره قد تغيّرت وتطوّرت تطوراً كبيراً مدة نفيه ، نتيجة تجاربه السياسية والحوادث الاجتماعية التى طرأت على نظام فرنسا .

فبثّ فيها عواطفه الجديدة ، وأحدث تغييراً بيناً فى أوضاعها ، وتوسع فى أبوابها إلى أن أصبحت خمسة أجزاء . وقد كان عنوانها الأول « البؤس » ، فأصبح « البؤساء » .

ومحور هذه الرواية هو « چان ڤلْچان» وتقلبات حياته ، فمن الحياة الشريفة إلى السجن ، ومن الانحطاط الخلقى والاجتماعى إلى الصلاح والاستقامة والبروز مرة أخرى ، يتخلل كل ذلك بدوات من الآلام والتضحيات . وترجمة هذه الرواية ترجمة كاملة لا يتسع لها المقام لتشعب الحوادث ولتعدد الاستعراضات ، ولذلك سنكتفى بتلخيصها فى أضيق حيز ممكن .

چان ڤلْچان عامل شاب فقير شريف ، حكم عليه بالسجن مع الأشغال الشاقة مدة خمس سنوات لمحاولته سرقة رغيف يسدّ به رمق أولاد أخته الجائعين . ضاقت حياته بالسجن من أول الأمر إذ هى حياة غريبة عليه لقساوتها وجورها ، فحاول الهرب عدة مرات وفى كل مرة كان يقبض عليه ويحاكم بتهمة الهرب ، إلى أن تضاعفت مدة سجنه ، فقضى فيه تسعة عشر عاماً ، انحطّ فيها وفسدت أخلاقه لمشاركته اللصوص والمجرمين .
ولما أطلق سراحه منح مائة وتسعة فرنكات ، مكافأة له على عمله طول مدة سجنه ، وشهادة إثبات شخصيته صفراء اللون

تنبئ بأن صاحبها كان يوماً ما ضيفاً على السجون الفرنسية . فأغلقت فى وجهه جميع الأبواب لماضيه السيىء . وراقبته الشرطة مراقبة دقيقة . فكاد ييأس من حياته لولا أن قيض له الله الأسقف « ميريال » ، الذى آواه وفتح له أبواب منزله وأطعمه على مائدته بكل حفاوة وإجلال ، كأنه ضيف عظيم . ليردّ له شرفه وثقته بنفسه . فكافأه چان ڤلْـچان بأن سرق منه أوانيه الفضية التى أطعمه فيها . ولما قبض عليه خارج المنزل متلبساً بسرقته أعيد إلى الأسقف ، الذى تظاهر أمام الشرطة بأنه منح چان ڤلْـچان هذه الأوانى ، وزاد على ذلك بأن أعطاه شمعدانين من الفضة ورجاه أن ينفق ثمنهما فى فعل الخير . فأثر ذلك فى نفس چان ڤلْـچان المشبعة بالإجرام ، ولم يكن يتصور مثل هذا السمو فى الأخلاق وأن هنالك من يفعل الخير كما رأى فى يومه هذا ؛ وبدأت نفسه ترجع إلى الحقيقة ، التى محتّها من مخيلته تسعة عشر عاماً فى السجن ، وهى : وجود الخير فى الحياة .

نجده بعد ذلك بثمانى سنوات فى إحدى مدن فرنسا الشمالية وقد حدث وقت دخوله إليها أن كانت النار مشتعلة فى منزل رئيس شرطتها ، وكان ولداه على وشك الموت حرقاً لو لم يسارع چان ڤلْـچان إلى إنقاذهما ؛ فشكر له الرئيس ولم يسأله عن إثبات

شخصيته ، وبذا لم يعرف ماضيه فى هذه المدينة . فعاش فيها عيشة شريفة وأسس بها صناعة درت عليه ربحاً كثيراً ، وأصبح ذا ثروة طائلة ، وسمى نفسه مسيو « مادلين » ، وذاع بين سكانها ما اتصف به من كرم وطيبة قلب وإحسان إلى الفقراء والمعوزين فانتخب عمدة للمدينة .

وفى ذات يوم رأى عاهرة تدعى « فانتين » تنشب أظافرها فى وجه شاب قد داعبها مداعبة سخيفة بأن وضع بين كتفيها العاريتين قطعة من الثلج ، فقُبِض عليها وحُكِمَ عليها بالسجن ستة أشهر . فشق على مسيو مادلين أن تذوق امرأة بريئة عذاب السجن وأمر بالإفراج عنها رغم أنها قد بصقت فى وجهه ؛ ثم طلب إليها أن تسلمه ابنتها « كوزات » ليتبناها ، ووعدها وعوداً صادقة أنه يسهر عليها وعلى تربيتها ، فوافقت المرأة وسلمته الطفلة ودخلت هى المستشفى لتعالج من مرض التدرن الرئوى .

عاش چان ڤلچان بشخصيته الجديدة فى هذه المدينة قرير العين ، بعيداً عن الشك ، إلى أن نقل إليها مفتش للشرطة يدعى « چاڤير » ، وهو مثال للشرطى الحازم ، الذى يخضع للسلطة خضوعاً أعمى ، ويتفانى فى عمله وفى إرضاء ضميره إلى أبعد حدود التفانى . وما إن وقع بصره على مسيو مادلين ، عمدة البلد ،

حتى شك فى أنه قد رأى هذا الوجه قبل ذلك فى السجن حيث كان يشغل وظيفة مفتش ، وأنه يشبه وجه چان ڤلْـچان شبهاً تامًّا . وقوى الشك لديه ، فأرسل إلى الإدارة العامة فى باريس يعلمها بأن مسيو مادلين هذا إن هو إلا الشقى چان ڤلْـچان، الذى تبحث عنه الشرطة لاتهامه بسرقة قطعة نقود من طفل صغير بعد مغادرته الأسقف ميريال . فكان ردّ الإدارة أن اتهمته بالجنون . ولكن رغم ذلك لم يتزعزع يقينه، إلى أن أشيع يوماً ما أن الشرطة فى باريس قبضت على شخص يدعى « شانماتييه» وقد توكد لديها أنه چان ڤلْـچان . فانتهى الأمر بچاڤير عند هذا الحد ، واعترف بخطئه ، واعتذر لمسيو مادلين عما خالجه من شك نحوه ، وما قام به من سعى لدى الإدارة العامة بباريس لإدانته .

فلما وصل الخبر إلى مسيو مادلين أن هناك بريئاً سيحاكم محله ، ثارت نفسه ثورة عنيفة . أيترك رجلاً آخر يحاكم ظلماً وعدواناً بينما هو يرتع فى بحبوحة العيش ؟ أم يتقدم مضحياً بسعادته وهناءته وبسعادة « كوزات » لينقذ هذا البرىء ، الذى ربما وضعه الله عمداً فى طريقه ليدفن ماضيه إلى غير رجعة ؟ أخذ مسيو مادلين يفكر طول ليله ويتردد بين الإقدام والإحجام،

وهو فى أشد عاصفة نفسية عرفها ، يؤنبه ضميره تارة ويحثه شبح الأسقف ميريال إلى الخير تارة أخرى ، حتى استقر به الرأى أخيراً على أن التضحية لا بد منها . فتقدّم إلى المحكمة يوم محاكمة الرجل الآخر ، واعترف بشخصيته ، وكشف القناع عن نفسه وحقيقته . ورغم سمو عمله هذا وعظمه ونبله : ورغم استقامته وبعده عن الجريمة وحياته الشريفة بمآثر البر المملوءة فى العشر السنوات الماضية ، فإن المحكمة لم تر أى اعتبار لكل ذلك ، ولاسيما أن الجريمة المتهم بها تافهة ، فلم تأخذها أية رحمة ولا شفقة ، فحكمت عليه وأعيد إلى السجن مرة أخرى . إلا أن إقامته فيه لم تطل هذه المرة ، إذ سقط بحار مصاب ذات يوم فى البحر ، وكان چان ڤلچان يعمل وجماعة من المسجونين فى ترميم جسر ، فألقى بنفسه فى الماء وأنقذه ، ثم ألقى بنفسه مرة أخرى فى الماء كمن فقد قواه ، وغاص فيه سابحاً إلى أن وصل إلى مركب كان راسياً بالقرب من الجسر ، واختبأ فيه حتى حلول الظلام وفرّ هارباً . ولما أعيا السجانون طول البحث عنه فى اليم ، أعلنوا غرقه وشادوا ببطولته فى إنقاذ البحار .

فها هو ذا للمرة الثانية حرٌّ فى باريس ، يعيش مختبئاً فى دير للراهبات ، يعمل بستانياً فيه باسم « فوشليڤان » ، بعد أن

نجا من چاڤير مرة ثانية وقد أوشك أن يقع فى قبضته . وقد تمكن من إنقاذ الجزء الأكبر من ثروته ، كما خلص الطفلة كوزات من أيدى صاحبى فندق كان قد وكل إليهما العناية بها فكانا من أقسى خلق الله عليها ، وأدخلها الدير لتتلقى علومها . وعاش معها ست سنوات خرج بعدها من الدير واستأجر منزلاً هادئاً عاش فيه معها إلى أن ظهر فى أفقها « ماريوس » ، وهو شاب رقيق جميل ، ابن أحد قواد نابليون ، أحبها وبادلته حباً بحب رغم فقره ؛ ولما شبت فتنة يونيه ١٨٣٢ ، وأقيمت المتاريس ودار القتال بين الثوار ورجال الحكومة فى المدينة ، اشترك فيها ماريوس. فعند ما علم چان ڤلچان بوجوده مع الثوار خلف المتاريس خشى عليه من عواقبها ، فسعى إليه . وإذ به يعثر على چاڤير وقد قبض عليه الثوار ، لوجوده متخفياً بينهم ، وحكموا عليه بالإعدام فوراً لتجسسه عليهم . فتقدم منهم طالباً أن يتولى هو إعدامه ، وأخذه وسار به إلى أن وصل إلى طريق ضيق معتم فبدلا من أن ينفذ فيه حكم الإعدام أطلق سراحه . وعاد إلى المتاريس ، فإذا بماريوس قد جرح ، فحمله وسار به داخل قنوات المجارى تحت الأرض مسافة طويلة إلى أن خرج فى حى بعيد عن منطقة القتال . فوجد چاڤير أمامه بزيه

العسكرى ؛ ولما رآه چاڤير أراد أن يقبض عليه باعتباره مجرماً هارباً؛ ولكنه وجد ذلك نكراناً للجميل وقد أنقذه چان ڤلْچان من الموت ، فتركه ، وضميره يؤنبه لمخالفته واجبه كشرطى ، وفضل الانتحار جزاء قيامه بعمل مخالف للقوانين التى تعوّد أن يطيعها طاعة عمياء ، فألقى بنفسه فى نهر السين .

أما ماريوس فقد تزوج من كوزات ، وعاش معها سعيداً وترك لها چان ڤلْچان كل ثروته بعد موته .

هذا التلخيص الضئيل لا يؤدى إلاّ فكرة يسيرة عن هذه الرواية الكبيرة ، التى تقع فى نحو ألفى صفحة ، وهى رواية خيالية تاريخية فلسفية اجتماعية غرامية ، تتخللها حوادث متباينة وتحاليل متشعبة متنوعة ، مبنية على فكرة وجوب القيام بإصلاحات اجتماعية واسعة ، أهمها تعليم الشعب أجمعه ، ورفع مستوى حياته ، وحماية الضعفاء حماية مُجدية . وقد عبر الكاتب عن هذه الفكرة فى مقدمة قصته قائلا : « إذا لم تحلّ المسائل الثلاث الجوهرية فى هذا القرن ، وهى إذلال الرجل بالفقر ، وسقوط المرأة بسبب الجوع ، وانحطاط الطفل بالجهل ، فسيبقى البؤس ، وستكون القوانين مسببة للهلاك الاجتماعى » .

وقد نالت قصته هذه من النجاح والشهرة ما نالته قصته

« نوتردام دى باريس » . ولم يكف هوجو عن كتابة القصص مدة نفيه ، وهو كالعامل الذى يبدأ عمله فى الصباح الباكر وينتهى منه بانتهاء اليوم . فكان يكتب طول النهار على لوحته الخشبية فى شرفته الزجاجية المطلة على المحيط الواسع ، يستنشق هواءه المنعش فيبعث فيه نشوة العمل ، وتمتلئ نفسه رغبة فى الإنتاج المستمر . فلا عجب أن أوحت إليه رؤيته لهذا المحيط وتلك الآفاق المتسعة بموضوع قصته « عمال البحار » Les travailleurs de la Mer التى نشرت عام ١٨٦٦ . وهى قصة عن تلك البحار المترامية ، بصخورها البارزة ، وأغوارها العميقة ، وأمواجها المتلاطمة ، وتياراتها وهدوئها وعواصفها . وهى أيضاً رمز لذلك المجهود المضنى الذى يبذله المرء للتغلب على ما لا مهرب منه من عوارض الطبيعة التى يلاقيها فى البحار ، يتخللها وصف رقيق لعاطفة البحار الجلد وغرامه .

وقد أعقب قصته هذه بقصة « الرجل الضاحك » التى نشرها عام ١٨٦٩ ، وجمع فيها كثيراً من الشذوذ والتناقض ؛ فجمع بين بطل القصة ، وهو رجل شقت شفتاه فى صغره حتى أذنيه ، فبدا كأنه يضحك دائماً ، وبين فتاة شابة رقيقة الطباع ولكنها عمياء .

ولم يكتف هوجو بنظم القصائد وتأليف القصص ، بل تعدّاها إلى الكتابة فى التراجم والنقد الأدبى . فقد طلب إليه ابنه « فرانسوا » أن يكتب له مقدمة صغيرة لمسرحيات شكسبير التى ترجمها ، فلم يرض بكتابة بعض صفحات ، بل وضع كتاباً ضخماً فى حوالى أربعمائة صفحة عن شكسبير وعن مؤلفاته وبحوثه وحياته ، وعن غيره من كبار كتاب الأدب .

ونشر حينئذ مجموعة غنائية مكوّنة من قصائد قصيرة تختلف اختلافاً بيناً عن كل ما كتبه من قبل ، إذ أنها كانت على النقيض ممتلئة رقة وعذوبة ، بعيدة عن الشدّة والقسوة التى اعتادهما فى كتاباته الأخيرة ، مما لم يكن منتظراً منه ، وسماها « أغانى الشوارع والغابات » .

على قمة المجد

رفعت هوجو مؤلفاته إلى قمة المجد وجعلته فى طليعة أدباء فرنسا وكتابها وأدباء العالم أجمع . وكان الشعراء يعدونه رائدهم وأستاذهم ، ويتهافتون تهافت باقى الشعب على قراءة مؤلفاته من أى نوع كانت . فاشتهر شهرة لا مثيل لها ، وذاع صيته فى أرجاء العالم ، ونال من التمجيد فى حياته ما لم ينله أديب آخر حتى بعد وفاته . فأوربا بأسرها تعده عبقرية عالمية ومن طراز أولئك الذين تحدث عنهم فى دراسته لشكسبير ، ناسياً نفسه ، فكان القراء ينوبون عنه فى إضافة اسمه إلى تلك السلسلة ، سلسلة النوابغ العالميين . وقد توجه النفى بإكليل من المجد والفخار ، ورفع من قدره فأصبح بطلاً من أبطال السياسة ، إذ أن سيطرته لم تقتصر على الناحية الأدبية فحسب ، بل تعدتها إلى الناحيتين السياسية والخلقية ، وقد أصبح مثالاً للرجل السياسى العظيم ، ورمزاً للحرية والإصلاح الاجتماعى والتقدم والرقى والثورة على الطغيان .

كانت كلمته موضع التقدير ، مسموعة فى كثير من الأحيان . وقد بدأ يظهر عام ١٨٥٩ نشاطاً سياسياً عالمياً ،

ويبذل نصائحه ووصاياه للأمم والشعوب . فكتب يحرّض الإيطاليين على توحيد صفوفهم وعلى الثورة لنيل الحرية . وأرسل إلى چنيف بمقالات طويلة يحثّ فيها على إلغاء عقوبة الإعدام ، وإلى روسيا يأمرها بالاحتفاظ ببولاندا . وناشد الولايات المتحدة أن تعفو عن « چون براون » ، كما حرّض المكسيك على الصمود فى حربها ضد نابليون الثالث إلى النهاية ، وعند ما أصبح « چياريز » رئيساً للجمهورية أرسل إليه ينصحه بإيثار الرحمة والشفقة ويملى عليه واجباته . وشجع الجمهوريين الإسبانيين ، واحتجّ بشدّة على مذبحة « كوبا » ، ولام جميع ملوك أوربا ورؤساء حكوماتها لتخليهم عن مساعدة « كريت» كما وجه نظر إنجلترا إلى سوء معاملتها إيرلندا ، ونصحها بتوخى الحق ومراعاته ، وما عدا ذلك فكثير ، مما أعلى صيته وسمعته فى عالم السياسة الدولى ، هذا ولم يترك أى ظاهرة فكرية دون أن يدلى برأيه فيها .

وقد أنعم عليه حاكم فلورنسا بالوسام التذكارى المئوى لدانت عام ١٨٦٥ ، وأرسل إليه رئيس وزارة البرتغال يبلغه رسمياً كأنه يبلغ دولة عظيمة ، إلغاء عقوبة الإعدام فى بلاده . وكثيراً ما كان يدعى إلى المؤتمرات فى الخارج أو ينتخب لرياسة بعضها ،

كما حدث فى مؤتمر الصلح الذى أقيم بلوزان ، وألقى فيه خطابه الرائع أمام « مواطنى الولايات المتحدة الأوربية » ، كما وضع برنامجاً كاملاً شاملاً للإصلاحات الاجتماعية . وعلى الجملة فلم يدع مجالاً للنشاط الفكرى أو الأدبى أو الاجتماعى أو السياسى إلا طرقه . فكان موضع التقدير تو العظيم والإجلال ، حتى فاقت شهرته شهرة « ڤولتير » نفسه فى القرن السابق ، وكانت الرسائل ترسل إليه أحياناً بهذا العنوان المختصر : « ڤيكتور هوجو بالمحيط » ، فتصل إليه . وقد أربت ثروته فى ذاك الوقت على المليون فرنكاً (أى أربعين ألف جنيه)

العودة إلى الوطن

كان هوجو قد قال عند مغادرته فرنسا : أعود متى عاد الحق والعدل والحرية . لذلك أبى أن يستفيد من قوانين العفو التي أصدرها نابليون الثالث عام ١٨٥٩ بكثير من الإباء والعظمة ؛ لأنه لم ير فيها الحرية التي ينشدها ، بل لم ير في وجود نابليون الثالث على عرش فرنسا العدل الذي يريده ، مفضلاً البقاء في منفاه الاختياري رغم حنينه إلى وطنه العزيز ، ذلك الوطن الذي ظل يتطلع في الأفق البعيد باشتياق إلى شاطئه من شرفته كل صباح . كما أنه وجد في مقامه بعيداً عنه كل الحرية في محاربة الإمبراطور المغتصب ، ولم يترك فرصة تمر إلا حاربه سواء أكان بقلمه أو بلسانه . وكان ختام محاربته هذه أن حكم عليه غيابياً عام ١٨٧٠ لاحتجاجه الشديد اللهجة على الاستفتاء الذي قام به الإمبراطور ، وكان عنوان هذا الاحتجاج كلا » .

ثم اندلعت نيران الحرب بين فرنسا وألمانيا ، وهزم الجيش الفرنسي في سيدان ، وسقطت الإمبراطورية .

وكان هوجو إذ ذاك فى بلجيكا ، وكانت هذه هى اللحظة التى ينشدها ؛ فأسرع عائداً إلى باريس ، وقلبه مملوء بالفرح والاضطراب معاً . واستقبلته الجماهير بحفاوة بالغة لم يكن يتصورها ، فكتب عنها فى مذكراته الخاصة يقول : « وصلنا إلى باريس الساعة التاسعة والدقيقة الخامسة والثلاثين . وكان هناك جمهور عظيم ينتظرنى ، وقد استقبلنى استقبالاً يفوق الوصف ، ووقفت لأخطب أربع مرات ، مرة من شرفة مقهى بالطريق والثلاث الأخريات من عربتى . وعند ما أوصلنى الجمهور الذى كان يزيد خطوة فخطوة إلى منزل پول موريس بشارع لاڤال ، وهممت أن افترق عنه ، قلت له : " إنكم تكافئوننى بساعة واحدة عن عشرين عاماً قضيتها فى المنفى " . وكانت الأصوات ترتفع بنشيد " المارسييز " ونشيد الرحيل . وبعضهم يصيح : عاش ڤيكتور هوجو ، وغيرهم يتغنون بأبيات من " العقوبات " . وقد استغرق الطريق من محطة الشمال إلى شارع لاڤال ساعتين . وأرادوا الذهاب بى إلى قصر الحكومة ، فصحت : " لا يا مواطنى الأعزاء ، لم أجئ لأزعزع الحكومة المؤقتة ، بل لأؤيدها " .

وكان وصوله إلى باريس ليلة أن طوقتها الجيوش الألمانية ، وكان القطار الذى أقله إليها آخر قطار دخلها . فوجه إلى الألمان

نداءه الذى طلب إليهم فيه أن يحترموا المدينة العظيمة ، موجهاً نظرهم إلى إخاء الشعوب والاتحاد العالمى ، بنفس الأسلوب الذى كان ينهجه فى مؤتمرات الصلح التى حضرها ، ولو أنه لم يكن على يقين من نتيجة ندائه هذا.

لم يظهر هوجو أى نشاط سياسى مدة الحصار ، لعلمه أن الكلمة للسيف والمدفع ، وليست للسياسة ؛ حتى إنه لم يوافق على إجراء انتخابات مجلس البلدية ، وعدّها غير مناسبة فى ذلك الوقت ، ورفض الموافقة على ترشيح نفسه فيها عن الدائرة الخامسة عشرة ؛ كما احتج على إدماج اسمه بين أعضاء لجنة الأمن العام ، ولم يقبل أن يشغل أية وظيفة ذات صبغة سياسية ، بل وجّه كل جهوده إلى تشجيع الدفاع عن باريس وتقوية الروح المعنوية فى الشعب . وساهم بنصيب موفور من الناحية المالية فى شراء المعدات الحربية اللازمة للدفاع ، وفى الإنفاق على المستشفيات المتنقلة . فقد أنفق عليها الجزء الأكبر مما جناه من بيع الطبعة الثانية لمجموعة « العقوبات » ومن قراءة أهم قصائدها على مسارح باريس .

وكان يُظهر روحاً مرحة مشجعة ؛ ويطوف بأنحاء المدينة ، وعلى رأسه خوذة حربية ، يبث الشجاعة فى نفوس المدافعين ،

ويحثهم على الصمود ما استطاعوا . ولكن صراعهم هذا لم يدم طويلاً ، إذ سلمت المدينة فى ١٨ يناير سنة ١٨٧١ . وأجريت فى الحال انتخابات الهيئة النيابية القومية للمفاوضة فى شروط الصلح مع الألمان فى « بوردو » وإبرام معاهدة معهم . فرشّح هوجو نفسه وانتخب عضواً فيها بين نواب باريس وسافر إلى بوردو . ولكنه لم يلبث أن انفصل فى الجلسات الأولى عن الأغلبية فى المجلس ، وانضمّ إلى حزب اليسار الذى رفض الأسس التى وضعت للمعاهدة . وصعد المنبر يطالب بإبقاء نواب الألزاس واللورين أعضاءً فى الهيئة ، وانعقاد المجلس فى باريس بدلا من بوردو . وفى جلسة ٨ مارس قوطع بشدة فى أثناء خطابه ، فاستاء كثيراً ، وقدّم استقالته من المجلس .

وبينما هو يستعد لمغادرة بوردو توفى ولده شارل الذى كان قد صحبه إلى هذه المدينة ؛ فنقل جثمانه معه إلى باريس ودفن يوم ١٨ مارس ، وهو اليوم الذى شبت فيه فتنة بلدية باريس (La Commune) . واضطر بعد ثلاثة أيام أن يمضى إلى بروكسل لتصفية تركة ولده . وعند ما أخمدت نار الثورة أرسل هوجو من بروكسل إلى الحكومة الفرنسية احتجاجاً شديداً على أعمال الانتقام الإرهابية التى أخذت بها الثوار بعد انهزامهم ،

ونشر خطاباً يعلن فيه استعدادة لإيواء الثوار بمنزله ببروكسل . فأثار خطابه هذا سخطاً شديداً عليه من جانب الحكومة البلجيكية ، التى كانت تعدّ الثوار فئة من الأشرار الفوضويين ؛ وثار عليه الشعب البلجيكى أيضاً ، فتجمهر أمام منزله فى ليلة ٢٧ مايو ، وقذفه بالحجارة وحطم زجاج النوافذ ؛ ولولا تدخل الشرطة آنئذ لما نجا هوجو من ثورة الشعب الغاضب . وكان هذا الحادث آخر عهده ببلجيكا ، إذ أمرته الحكومة بمغادرة البلاد فى الحال وحرّمت عليه دخولها مرة أخرى.

سنوات هوجو الأخيرة ومولفاته فيها

سافر هوجو من بلجيكا إلى لوكسمبورج ، ومنها إلى تيونفيل ، تلك المدينة التي دافع عنها والده مراراً منذ ستين عاماً ؛ ثم سافر إلى لندن . وبعد مدة عاد إلى باريس ورشح نفسه مرتين لعضوية مجلس النواب ، فسقط فى المرتين . فنقم من باريس وأهلها ، ورحل إلى جزيرة چرنسى ، ومكث بها سنة كاملة ؛ عاد بعدها إلى باريس فى يوليه سنة ١٨٧٣ ، فوجد ولده الثانى مريضاً ، ثم لم يلبث أن وافته المنية فى أواخر السنة نفسها ، وهو فى الخامسة والأربعين ، فى سن شقيقه الذى قضى نحبه منذ عامين . فكانت الصدمة أليمة على نفسه ، ولا سيما أنه لم يبق له من أسرته سوى ابنته المخبولة وحفيده چورج وحفيدته چان ، اللذين بقيا موضوع حبه وسلوى حياته . وقد نظم فيهما مجموعة شائقة من القصائد عنوانها « كيف يكون للمرء جداً » (L'Art d'être grand'père) عبر فيها بسذاجة عذبة عن عاطفته وحنوه عليهما ، فوصف أهواء الطفولة البريئة ولهوها الممتع وإقبالها على الحياة ، بأسلوب رقيق جذاب .

وظل يعمل ولا ينقطع يوماً عن التأليف ، وقد نشر فى العشر السنوات الأخيرة عدداً غير يسير من الكتب ، منها : « أفعال وأقوال » وهى مجموعة خطبه السياسية والاجتماعية التى ألقاها منذ عام ١٨٤١ ؛ و « السنة الرهيبة » وهى مجموعة شعرية عن الحرب وآلام الحصار ؛ وقصة عن الثورة الفرنسية عنوانها « ثلاثة وتسعون » أى عام ١٧٩٣ ؛ وقصائد أخرى كثيرة زاد بها « أساطير القرون » فأصبحت جزئين ؛ ونشر قبل انتخابات عام ١٨٧٧ ، وكان وقتئذ عضواً بمجلس الشيوخ ، كتاب « قصة جريمة » التى كان قد كتبها بعد نفيه مباشرة ، وهى قصة الانقلاب السياسى الذى أحدثه نابليون الثالث . ونشر أيضاً خطبة عن ڤولتير ، وكتاباً عن البابا فى سنة ١٨٧٨ عنوانه « البابا » ؛ ثم « الرحمة الكبرى » وهى مجموعة قصائد نظمها فى الشفقة والرحمة بالضعفاء والمساكين ؛ ومجموعة قصائد أخرى سماها « الحمار » يهجو فيها العلم والعلماء ؛ وكتاب « الديانة والديانات » (١٨٨٠) .وهو آخر ما وصلت إليه فلسفته الإنسانية المملوءة بالوهم والخيال ، وقد درس فيها المعرفة والإدراك ، والضمير والعدالة ، وقدرة الحياة العالمية على الخير والشر . ثم نشر فى عام ١٨٨١ مجموعة أخرى من القصائد الهجائية والغنائية عنوانها



« رياح العقل الأربع » ؛ ومسرحيته الفلسفية « تركو يمادا » : فالجزء الثالث من « أساطير القرون » ؛ ثم قصة « أرخبيل المانش » .

وهناك عدد كبير من مؤلفاته كتبها ولم تنشر إلا بعد وفاته ، منها « المسرح الحر » و « آخرة إبليس » و « أشياء رؤيت » و « الله » و « الإلهام الكامل » و « السفريا ت » و « السنوات المشؤومة » و « المحيط » و « الباقة الأخيرة » و « التوأمان » ومسرحية « أمي روبسار » ، وغير ذلك .

وهكذا كان لهوجو قدرة على التأليف عجيبة ، تجعله يقف أمام منضدته كل صباح فيكتب ما لا يقل عن مائة بيت من الشعر أو عدداً غير قليل من الصفحات النثرية ، يضاف إليها عدد من الرسائل .

وصار مضرب الأمثال بوجهه العريض ذى الجبهة الواسعة ، وشعره الأبيض الغزير ، ولحيته البيضاء .. وكان رغم تجاوزه السبعين لا يزال قوياً نشطاً ، على أحسن ما يكون من صحة وعافية ، لم يشعر يوماً بالتعب ، مع إفراطه فى العمل ؛ وإذا استثنينا مرضه بالتهاب جلدى سنة ١٨٥٧ ، وانحطاط فى أعصابه فى صيف ١٨٧٨ ، انتقل بسببه إلى جزيرة جرنسى

للمرة الثالثة حيث أقام أربعة أشهر ، إذا استثنينا هذا فإننا نستطيع أن نقول : إنه لم يعرف المرض فى حياته الطويلة .

ولم ينقطع فى سنه هذه يوماً عن نزهاته الطويلة مشياً على الأقدام أو ركوباً فى الطبقة العليا من المركبات المكشوفة ، غير مبال بالبرد يلفح وجهه أو بالمطر يتساقط عليه .

وقد حكى عنه حفيده چورج « بقى حتى أواخر أيامه ذا شهوة غريبة إلى الطعام ، فقد كان يجهز لنفسه على المائدة ألواناً غير مألوفة من المآكل ، هى خليط من الأنواع المختلفة التى تقدم إليه ، فيخلط البيض باللحوم والخضروات والطيور والبطاطس وغير ذلك فيجعلها جميعها فى صحفة واحدة يقطعها قطعاً صغيرة بسكينه ، ثم يصب عليها كل ما فى المملحة من ملح ، ويأكلها متلذذاً فإن كان أمامه على المائدة سرطان فإنه لا يجد غضاضة فى أن ينزع ساقاً من سيقانه ، يقضمها بأسنانه الفولاذية ، ويلتهمها بلحمها وعظامها ، وكلنا دهش مما يفعل . وكذلك كان يصنع بالبرتقال ، إذ كان يضع الواحدة منها فى فمه ويأكلها مع قشرها ، كغول ظريف ، مبتسماً للدهشة التى يراها فى أعيننا المحملقة . »

كانت جوليت درورويه تقيم معه فى منزله الجديد بشارع

« أيلو » ، وكانت إذ ذاك فى الثالثة والسبعين ، ولم تزل تحيط الشاعر الذى أحبته مدة خمسين عاماً بعطفها وحنانها وحبها العميق . وشهدت معه ذلك الاحتفال العظيم والمظاهرة الرائعة التى قامت بها فرنسا بأسرها تحية له يوم ٢٦ فبراير سنة ١٨٨٢ لبلوغه الثمانين من العمر . فقد احتشدت الجماهير أمام داره ، وأخذت تنشد قصائده وتحييه كملك متوج . وقدّر عدد الذين مروا أمام الدار بما يقرب من السمائة ألف نسمة من سكان باريس ؛ وقد حياهم الشاعر مراراً من شرفته . كما شهدت معه أيضاً قبل ذلك بعامين احتفالاً لا يقل روعة وعظمة ، وذلك يوم احتفل مسرح « الكوميدى فرانسيز » الشهير بمرور خمسين عاماً على أول تمثيل لمسرحية « هرنانى » . وبعد انتهاء تمثيلها وضع على المسرح تمثال نصفى لهوجو كلل بالأزهار ، ووقفت الممثلة « سارا برنار » ممسكة بيدها سعفة ذهبية وأخذت تقرأ قصيدة « معركة هرنانى » التى كتبها الشاعر « فرنسوا كوبيه » خصوصاً لهذه المناسبة .

وأصيبت چولييت فى آخر أيامها بمرض السرطان الخبيث الذى أخذ يضنيها شيئاً فشيئاً ؛ فاحتملت آلامه الشديدة بعزيمة جبارة حتى لا تؤلم هوجو . وأشد ما كان يعذبها خوفها أن تموت

وتترك حبيبها وحيداً فى هذه الحياة ، وهى التى ظلت وفية له ، تحوطه برعايتها طوال السنين الماضية . ولكن عذابها لم يطل ، فقد وافاها أجلها المحتوم فى الحادى عشر من شهر مايو سنة ١٨٨٣ عن سبعة وسبعين عاماً .

فكان موتها خسارة على هوجو لا تعوّض ، إذ كانت بهجة شبابه وكاتمة أسراره ودعامة شيخوخته ورفيقة حياته المخلصة . بكاها كثيراً وحزن عليها شديداً ، وفارقه بموتها نشاطه . فكفّ عن الكتابة والتأليف ، وزادت كآبته ، وبدأت قوته فى الاضمحلال ؛ فلزم منزله واعتكف فيه ، وظهرت جروح فى قلبه ، إلى أن أصيب بالتهاب رئوى فى ١٨ مايو سنة ١٨٨٥ . ولما زادت وطأة المرض عليه ، شعر بأن منيته أوشكت أن تحين ، فودّع أصدقائه ، قائلا آخر بيت من الشعر تلفظ به :

« ها هنا جهاد الليل والنهار »

ثم طلب حفيديه وضمهما إلى صدره يقبلهما وهو يبكى ، وقال : « اقتربا منى يا ولدىّ . . . كونا سعيدين . . . فكرا فىّ . . . وأقيما على حبى يا عزيزىّ . »

ولما أخذ يعالج سكرات الموت ويقاومها أحياناً بقوّته ، قال لصديقه پول موريس : « ما أطول انتظار الموت . » فقال

پول موريس : « أنت لن تموت . » فقال هوجو : « كلاّ ها هو ذا الموت ، فمرحباً به . » وكان آخر ما قال : « الوداع يا چان . » . وأسلم الروح فى يوم الجمعة ٢٢ مايو سنة ١٨٨٥ فى منتصف الساعة الثانية بعد الظهر ، ولم يتمم الواجبات الدينية . ومات هادئاً مطمئنًّا لأنه كان مؤمناً بخلود الروح ، يعزّيه أن الموت ما هو الاّ انتقال بسيط ، وأن القبر باب العالم الأعلى .

الجنازة القومية

كان الشاعر قد كتب وصيته قبل وفاته بعام وسلمها إلى صديقه پول موريس ، وهى :

« أعطى خمسين ألف فرنك للفقراء
أريد أن أحمل إلى المدافن فى عربتهم
أرفض صلوات الكنائس جميعها
أطلب الدعاء من جميع الأرواح
أومنُ بالله .

ڤيكتور هوجو . »

وقد قرّر مجلس بلدية باريس أن يدفن فى البانتيون ، كما قرّرت الحكومة أن تحتفل رسميًّا بتشييع جنازته ، وأن يعرض جثمانه تحت قوس النصر لتحييه الجماهير . فشيّدت منصّة كبيرة فاخرة ، وضع عليها التابوت الضخم يوم ٣١ مايو ، وزين القوس وكُسِىَ بالحرير الأسود ، وقد كتبت عليه عناوين مؤلفاته . وكانت الأعلام السود المزينة بالنجوم الفضية ترفرف

على جوانبه ؛ وأضيئت حول القوس مائتا شعلة ليلاً ونهاراً . وقام بالحراسة فريقان من الفرسان المدرعين ؛ وكان حرس الشرف مكوّناً من طلبة المدارس . وتوالى مرور الجماهير أمام القوس لتحية الراحل طول النهار ، وعادت فى الليل تتدفق إلى الميدان من جميع الشوارع المؤدية إليه كأنها أنهار تمر أمام الجثمان صامتة خاشعة ، تودع شاعر فرنسا العظيم .

وفى أول يونية فى الساعة الحادية عشرة دوّت إحدى وعشرين طلقة معلنة بدء الاحتفال بتشييع الجنازة . فحضر ممثلو الحكومة والهيئات على اختلافها ، وممثلو الدول الأجنبية ؛ وبدأ الخطباء يتناوبون تأبينه ، فألقى كل من رؤساء مجالس الشيوخ والنواب وبلدية باريس ومجلس السين العام ووزير المعارف وممثل الأكادمية الفرنسية كلمة بليغة فى الراحل الجليل .

وفى منتصف الساعة الثانية وُضع الجثمان على العربة المخصصة للموتى الفقراء ، كما طلب الشاعر فى وصيته ؛ فكان تناقضاً عجيباً أن تسير أمام هذا الموكب الهائل تلك العربة المتواضعة ، وخلفها أعلام الدولة وعظماؤها وممثلو الدول الأجنبية ومحافظ باريس وكتيبة من الحرس وآلاى من الفرسان وإحدى عشرة مركبة يجرّ كلاً منها ستة جياد تحمل أكاليل الزهر .

ومرّ الموكب بشارع « الشانزيليزيه » فميدان « الكونكورد » فشارع « سان چرمان » وشارع « سان ميشيل » وشارع « سوفلو » . وعلى طول هذه الشوارع ، على الأرصفة وعلى أسطح المنازل وفى شرفاتها ونوافذها ، وعلى الأشجار وأعمدة المصابيح ، وعلى التماثيل والنافورات العامة ، وعلى المنابر المعدّة من قبل ، وفى كل مكان ، كانت الجماهير متجمعة كالبحر الزاخر ، تبلغ المليون نسمة ، تنتظر مرور الموكب الهائل الذى كان مؤلفاً من حوالى مائة ألف شخص .

وفى الساعة الثانية وصل النعش أمام « البانتيون » ، فأنزل عن العربة ووضع أمام الباب ، إلى أن مر الموكب بأجمعه من أمامه يحييه التحية الأخيرة . وكانت الساعة السادسة والنصف حين وضع فى الناووس ورقد رقدته الأبدية .

ففقدت فرنسا بموته شاعراً من أكبر شعرائها ، ومفكراً كانت له جولات وصولات فى حياتها الأدبية والسياسية والاجتماعية فترك لها تراثاً من آثاره لن تبرح فرنسا بل العالم بأجمعه يتداوله مدى الأجيال .

* * *

ها هى ذى حياة ذلك الرجل العظيم الذىساير فرنسا فى

كل أطوارها فى القرن التاسع عشر ، وبعث فيها روحاً أدبية عالية ، وأفنى حياته فى سبيلها وفى سبيل الأدب ، ولاقى كثيراً من الشدائد حتى النفى من الوطن ليخلق منها فرنسا أخرى جديرة باحترام العالم . فآثاره تعدّ من أعظم آثار الأدب الفرنسى ، بل دعامة الأدب الحديث ، وإن لم تخلُ بعض الأحيان من العيوب ولم تسلم من النقد . فقد كان تأثيرها عميقاً وعاماً فى نفوس الشعراء والأدباء .

وإذا كان لإنجلترا أن تفخر بشكسبير ، ولإيطاليا بدانت ولألمانيا بجوته ، ولإسبانيا بسرڤانتيس ، ولروسيا ببوشكين ، فمن حق فرنسا أن تفخر بشاعرها العظيم هوجو .

الفهرس

صفحة

صفحة

تم طبع هذا الكتاب على مطابع
دار المعارف بمصر سنة ١٩٥٩

ديسمبر ١٩٥٩ الثمن ٥٠ مليما